بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسـلامية – غـــــزة
عمادة الدراســـــات العليـــــــا
كلية الآداب – قسم اللغة العربية
تخصـــــص الأدب والنـــــقد

فن الرثاء في العصر المملوكي الثاني
(الدولة البرجية 784 – 923هـ)
دراسة تحليلية

إعداد الطالب
خالد نبيل أبو علي

إشراف
الأستاذ الدكتور
كمال أحمد غنيم

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد

1433هـ - 2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza

عمادة الدراسات العليا
هاتف داخلي: 1150

الرقم.....ج س.غ/35/..... Ref
2012/11/10
التاريخ..... Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **خالد نبيل خالد أبو علي** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم اللغة العربية**، وموضوعها:

فن الرثاء في العصر المملوكي الثاني الدولة البرجية 784 -923هـ

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم السبت 25 ذو الحجّة 1433هـ، الموافق 2012/11/10م الساعة الواحدة والنصف ظهرًا بمبنى طيبة، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. كمال أحمد غنيم	**مشرفاً ورئيساً**	.....
د. ماجد محمد النّعامي	**مناقشاً داخلياً**	.....
د. عاطف عبد الله أبو حمادة	**مناقشاً خارجيًا**	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/**قسم **اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد الدراسات العليا

أ.د. فؤاد علي العاجز

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine fax: +970 (8) 286 0800 فاكس Tel: +970 (8) 286 0700 هاتف ص.ب. 108 الرمال، غزة، فلسطين
public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps

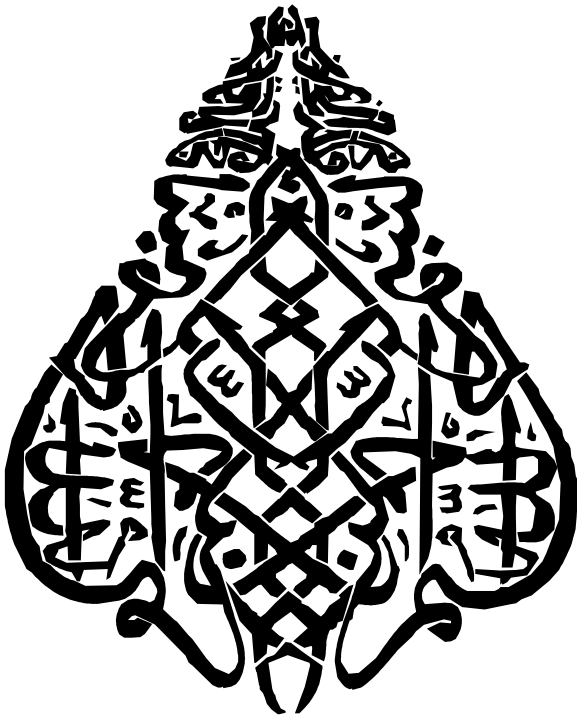

إهداء

إلى خير معلم للبشرية جمعاء حضرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

إلى والدي .. المربي والمعلم .. المرشد والموجه ..
الأب العالم الذي قاد خطواتي في دروب العلم والمعرفة
إلى والدي الذي غرس فيّ حب العلم ، وعلمني الصبر في طلب المعرفة

إلى والدتي .. التي لم يسكن لها جفن وهي تدعو لي
إليها .. وهي تحوطني بالرعاية وتزرع في دربي أزهار التفاؤل والأمل

إلى رفيقة دربي .. التي عملت جاهدة لتوفر لي جوا دراسيا هادئا

إلى أبنائي فلذات كبدي .. الذين داعبت أصواتهم مسامعي

إلى إخواني وأخواتي

إلى كل من سلك طريقا يلتمس به علما

أهديهم جميعا هذا العمل المتواضع

خالد نبيل أبو علي

شكر وتقدير

الحمد لله الذي علم بالقلم ، والصلاة والسلام على رسوله الذي أوتي جوامع الكلم ، عليه وعلى آله وصحبه ومَن سار على هديه أفضل الصلاة والتسليم .. وبعد:

يُسعدني أن أتقدم بأسمى معاني الشكر والعرفان والتقدير – بعد شكر الله والثناء عليه – إلى كل من قدم لي المساعدة في إتمام بحثي ، إلى من كان لهم الفضل في توجيهي ، الذين أسدوا لي النصيحة في كل خطوة أخطوها ، وأمدوني من خبرتهم وإرشاداتهم الغالية ما كان زادا ونبراسا أضاء لي طريق البحث ، وأخص بذلك كله أستاذي ومشرفي أستاذي الدكتور "كمال أحمد غنيم" ، الذي لم يبخل علي بوقته وجهده وتوجيهاته ليخرج البحث إلى النور .

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذين الجليلين عضوي لجنة المناقشة ؛ الأستاذ الدكتور/ عاطف عبد الله أبو حمادة أستاذ الأدب والنقد المشارك في كلية الآداب بجامعة القدس المفتوحة بغزة .

والأستاذ الدكتور/ ماجد محمد النعامي أستاذ الأدب والنقد المشارك في كلية الآداب بالجامعة الإسلامية بغزة .

على ما بذلاه من جهد في قراءة هذا البحث ، وما أسدياه من نصائح .

والشكر موصول إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية بالجامعة الإسلامية ، كل بلقبه ومنزلته ...

وأخيرا أسأل الله التوفيق والسداد

المقدمة :

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على خير معلمٍ للبشرية جمعاء سيدنا محمد عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلاة وأتم تسليم ، وبعد :

تنقل الأدب العربي بين العصور ، واكتسب من كل عصر سمات شتى طبعت فنونه وميزتها عن سواها من فنون الأدب في باقي العصور ، وكانت البيئة العامة ؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية هي الوسيط الذي تفاعلت فيه متغيرات تلك العصور ، فتأثرت بتلك المتغيرات وأثرت في الأدب وامتطت صهوة فنونه ، فطبعت أدب كل عصر بطوابعها ، ووصف بأوصاف ميزته عن غيره ؛ سواء على صعيد المعاني والموضوعات ، أو البناء والسمات الفنية .

أما العصر المملوكي – عصر الموسوعات – فقد تكالبت عليه قوى الاستشراق والمتعجلون في إلقاء التهم والأوصاف فوصفوا العصر المملوكي بأوصاف الضعف والركود ، ومع ذلك فإنني رأيت هذا العصر قد شهد انتعاشا وتطورا في شتى مناحي الحياة ، الأمر الذي وسم أدبه بسمات أظن أنها سمات ايجابية ميزته عن باقي عصور العربية .

فعلى صعيد الواقع السياسي وتفاعلاته مع باقي أوجه الحياة العامة في ذلك العصر نشير إلى روح الوحدة والتكافل التي ميزت المجتمع المملوكي ، حيث انتظم الأدباء صفا واحدا تحت راية واحدة ، يجمعهم هدف واحد ، وتحفهم رعاية الرحمن ، بعدما تعرضوا لهجمات وغارات غادرة من أعداء الإسلام الصليبيين والتتار ، الذين أفلحوا في حقب سابقة في سلبهم الأمن من حياتهم ونزع البسمة من على شفاههم ، وعاثوا في الأرض فسادا وإفسادا ، وأرادوا الهيمنة على بلاد المشرق الإسلامي ، بل أرادوا بذلك قتل روح العلم والعلماء ، ونشر الجهل والتخلف ... كل ذلك كان نقطة تحول في حياة الأدب في ذلك العصر حيث انتفضت أقلام الأدباء ، وصدحت أفواه الشعراء بمشاعر جياشة تنوح على بغداد وما حل بها من خراب ، وتبكي المدن والبلاد التي عاثت فيها أيدي الخراب الصليبية والمغولية ... وتشد من أزر المكلومين المنكوبين الذين حلت بهم مصيبة القتل والتنكيل ... هذا إضافة إلى صيحات طلب الثأر ، وحث القادة والمجاهدين على التصدي للزحف الهمجي المغولي والدفاع عن الإسلام والمسلمين .

ولكن للأسف نجد بعض الدارسين – والأدهى من ذلك أنهم من أبناء جلدتنا – يأبون إلا أن ينضموا إلى قافلة الببغاوات ، حيث يرددون العبارة التي تظلم ذاك العصر وتحط من قدره بقولهم : " عصر انحطاط ... عصر تخلف " ، فبرأيي أن هذه الفكرة العارية عن الصحة قد نجح أعداء الإسلام في غرسها في عقولهم ، فالصليبي الذي خطط سياسة التعليم للدول العربية

القس أو السير " دنلوب " – مستشار وزارة المعارف المصرية إبان حكم البريطاني "كرومر" لمصر ، هو الذي وضع سياسة التعليم لكي تحقق أهداف الصليبيين .
وفي ظني كان على أولئك المغرر بهم أن يعملوا بقول الله عز وجل : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} الحجرات6.

دوافع الدراسة وأهميتها :

رغبة الدارس في الاستجابة للأصوات القليلة المنادية بإنصاف الأدب العربي في العصر المملوكي ، ووضعه في المكانة التي يستحقها إلى جانب عصور الأدب العربي المتنوعة ، ولأن دراسة فنون الأدب عامة أو أغراض الشعر المتنوعة في عصر من العصور مهمة لا يتمكن منها دارس ، ولا تستوعبه دراسة واحدة ، ولأن العصر المملوكي الأول حاز دراسة أظن أنها أنصفته ، اخترت فن الرثاء في العصر المملوكي الثاني لما فيه من معاني الألم والحزن والمعاناة التي عايشها آنذاك شعراء العصر المملوكي الثاني ، هذا على صعيد معاني فن الرثاء ، أما على صعيد قضاياه الأدبية والفنية فأتوخى الإسهام في إنصاف أدب هذا العصر من خلال إبراز سماته التي أظنها ستسهم في دفع تهمة الضعف أو الركود والانحطاط .

وبناء على ما سبق سوف أتناول في بحثي هذا نماذج من فن الرثاء في العصر المملوكي الثاني بالدرس والتحليل ساعيا إلى الكشف عن قيمتها الأدبية والفنية ، ولكي تكون شاهدا على مكانة الأدب في العصر المملوكي وخصائصه .

ولكي يصل البحث إلى الأهداف المتوخاة رأيت أن تتوزع هذه الدراسة على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، تهتم المقدمة بعرض مبررات الدراسة ووصف خطتها ومنهجها ، ويهتم التمهيد بالحديث عن البيئة العامة للعصر المملوكي ، السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

أما الفصل الأول فيهتم بدراسة رثاء رجال الدولة في العصر المملوكي الثاني ، ويتوزع الحديث فيه على مبحثين ، يسعى الأول إلى الوقوف على رثاء رجال الدولة من سلاطين وأمراء ووزراء وولاة وقادة .. ، ويهتم المبحث الثاني بدراسة رثاء القضاة والفقهاء والعلماء والأدباء ..
ويتخصص الفصل الثاني بدراسة رثاء الأقارب والأصدقاء ، ويتوزع الحديث فيه على مبحثين يدرس الأول رثاء الأقارب من أبناء وآباء وزوجات وأمهات ...، ويدرس الثاني رثاء الخلان والأصدقاء .

ويهتم الفصل الثالث الموسوم بـ "في ميزان النقد" بدراسة السمات الفنية لهذا الفن ، ومعرفة مكانته بين فن الرثاء في مختلف عصور العربية ، وسيتوزع الحديث فيه على مبحثين ، يهتم أولهما بدراسة لغة هذا الفن وأسلوبه ، ويهتم الثاني بدراسة الصورة الشعرية .

وأختتم هذا البحث برصد النتائج التي توصلت لها ، والتوصيات التي تستحق تسجيلها ليستفيد منها الدارسون .

ولتحقيق هذه الغايات ستعتمد الدراسة المنهج المتكامل ، الذي أظنه الأنسب لاستجلاء كوامن النصوص الشعرية ، والكشف عن سماتها الموضوعية والفنية . راجيا من الله عز وجل التوفيق والسداد .

البيئة العامة للعصر المملوكي الثاني

1 – البيئة السياسية :

بعد أن توفي المنصور علي وكان قد حكم دولة المماليك الأولى (البحرية) مدة خمس سنوات (778–783) خلفه أخوه الصالح حاجي ، ولم يمض عليه سوى سنة حتى خلع ، وتسلطن الأمير برقوق من المماليك الجراكسة ، غير أن الصالح حاجي أعيد بعد سبع سنوات (784–791) ، وحكم مدة سنة واحدة (791–792) ، ثم أخرج السلطان برقوق من سجنه ، وأعيد إلى سلطانه ، وانتهى عهد المماليك البحرية بشكل دائم ، وجاء عهد المماليك الجراكسة البرجية([1]).

وبقيام الظاهر برقوق في الحكم سنة (784 هـ / 1382م) تبدأ الدولة المملوكية الثانية ، وهي دولة المماليك الجراكسة التي قامت على أسس تخالف الأسس التي قامت عليها دولة المماليك الأتراك ، فجميع سلاطينها كانوا جراكسة الجنس ما عدا اثنين يرجعان إلى أصل يوناني هما : الظاهر خشقدم والظاهر تمريغا([2]) . وترجع أصول دولة المماليك الجراكسة إلى أوائل عهد السلطان المنصور قلاوون من سنة (678هـ – 1279م حتى 689هـ – 1290م)([3]) حين عمل على تكوين فرقة جديدة من المماليك من عناصر جديدة غير الفرق المملوكية السابقة ، يغلب على هذه الفرقة العنصر الجركسي([4]) .

كان الجراكسة يسكنون الأرض المشرفة على البحر الأسود من جهة الشمال الشرقي ، وتشكل أرضهم الجزء الشمالي الغربي من بلاد القفقاس الممتدة بين البحرين الأسود والخزر ، والتي كانت تعرف آنذاك باسم بلاد القفجاق ، وكانت تلك الجهات آنذاك مسرحاً للصراع بين مغول فارس أو الدولة الإيلخانية ، ومغول القفجاق أو الأسرة الذهبية ، وهذا الصراع جعل أعداداً من أبناء الجراكسة تدخل سوق النخاسة ، وتنتقل إلى مصر ، فاشترى السلطان المنصور قلاوون أعداداً منهم ليتخلص من صراع المماليك البحرية ، وليضمن الحفاظ على السلطة له ولأبنائه من بعده ، وقد أطلق على هؤلاء المماليك الجدد اسم المماليك الجراكسة ، نسبةً إلى أصولهم التي

([1]) محمود شاكر : موسوعة التاريخ الإسلامي– العهد المملوكي، الطبعة الخامسة – المكتب الإسلامي بيروت 2000م، 38/7.

([2]) البدر العيني : السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة ، تحقيق إيمان عمر شكري ، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي ، القاهرة 2002م ، ص6 – 7 .

([3]) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 1982 ، 1/ 374 .

– أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1997م ،663/1 .

([4]) ابن إياس : بدائع الزهور 362/1 .

ينتمون إليها ، كذلك أطلق عليهم اسم المماليك البرجية نسبةً إلى أبراج القلعة التي أسكنهم قلاوون فيها([1]) .

وبعد أن أسكن المنصور قلاوون المماليك الجراكسة في الأبراج والقلاع أظهر اهتمامه الخالص نحوهم فعاملهم معاملة الأب لأبنائه ، ومعاملة المربي لتلاميذهِ حيث قام بتدريبهم وإعدادهم عسكرياً ، وحباهم بعطفهِ ، وأغدق عليهم من هباته وأموالهِ الكثير ، وذلك بعد أن عزلهم عن غيرهم من طوائف المماليك([2]) .

وقد سار أبناء قلاوون على نهج والدهم في الاهتمام بالمماليك البرجية ، فالأشرف خليل بن قلاوون – وعلى الرغم من قصر مدة حكمه – قد اشترى حوالي ألفين من المماليك الجراكسة([3]) ، وسمح لهم – ولأول مرة – بالنزول من ثكناتهم العسكرية بالقلعة إلى القاهرة والفسطاط ليتجولوا فيها نهاراً ثم يعودون للمبيت في القلعة ليلاً ، فذلك إن دل فإنما يدل على الخير والنعيم والترف الذي عم طائفة المماليك البرجية آنذاك ، والذي حسدتهم عليه باقي طوائف المماليك الأخرى متمنين الحلول مكانهم([4]).

ظهور دور المماليك الجراكسة على الساحة السياسية :

لعب مماليك الدولة البرجية دوراً بالغ الأهمية والأثر في الساحة السياسية ، فقد أصبحوا الساعد الأيمن الذي ارتكز عليه سلاطينهم في الدفاع عن الدولة ضد أي خطر يهددها وصد الهجمات العدائية ، إضافة إلى مساعدتهم السلطان في إدارة شؤون البلاد ، إذ كان جل اعتماد السلطان عليهم آنذاك على النحو التالي :

1- دورهم في الدفاع عن أستاذهم الأشرف خليل بن قلاوون ، وذلك عندما تعرض لمؤامرة قتل دبرها بيدرا فقاموا بقتله ، إضافة إلى دورهم في اختيار السلاطين والحكام ، حيث قاموا باختيار الناصر محمد سلطاناً على البلاد في سلطنتهِ الأولى سنة 693هـ – 1293م ، على الرغم من كونه ما يزال طفلاً([5]) .

([1]) محمود شاكر : موسوعة التاريخ الإسلامي ، العهد المملوكي 70/7 .

([2]) قضى الملك المنصور قلاوون الصالحي الألفي حكمه كله في الجهاد ضد الصليبيين ، حتى توفي سنة 689هـ – 1290م . المقريزي : السلوك 755/1 – 756 .

([3]) أحمد بن علي المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، الطبعة الثانية ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 1987م ، 241/2.

([4]) ينظر : محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، الطبعة الثانية ، مكتبة الآداب، القاهرة 1962م، 79/1 .

([5]) حسن بن عمر حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، الطبعة الأولى ، دار الكتب المصرية 1976، 169/1 .

2- مساندتهم لسنجر الشجاعي ووقوفهم إلى جانبه ضد كتبغا وأنصاره من المماليك البحرية ، وذلك بعدما احتدم الصراع بينهما خلال فترة حكمهما باسم السلطان الطفل الناصر محمد ، حيث هزمت مماليك البرجية كتبغا وأنصاره([1]) .

3- دورهم في قتل السلطان لاجين بزعامة الأمير سيف الدين الكرجي ، بعدما ساءت أحوال المماليك الجراكسة في عهد كل من لاجين (1296 – 1298م) وكتبغا (1294 – 1296م)، وذلك عندما قام كل من لاجين وكتبغا بنزع عرش السلطنة من الناصر محمد خلال فترة حكمه ، فاستطاع مماليك البرجية استعادة عرش السلطنة وعاد الناصر محمد مرةً ثانية إلى حكمه([2]).

4- أيضاً لقد شهدت سنة 700هـ معركة شرسة بين المماليك البرجية وبين جيش المغول في معركة(شقجب) بالقرب من دمشق ، هذه المعركة التي ألحقت فيها مماليك البرجية الهزائم الفادحة بقوات المغول ، إضافةً إلى سنة 1302م التي شهدت بسالة المماليك البرجية في القتال ضد المغول في بلاد الشام([3]) .

وقد ازداد نفوذ المماليك الجراكسة بعد أن أعادوا الناصر محمد بن قلاوون للحكم مرةً ثانية سنة 698هـ ، فبدئوا يوجهون أنظارهم إلى عرش السلطنة خاصة حينما شعروا بضعف الناصر محمد في إدارة شئون البلاد ، وبدأ الأمير بيبرس الجاشنكير الذي عينه السلطان محمد بن قلاوون استاداراً([4]) يعد لهذا الأمر عدته . حيث قام بيبرس الجاشنكير بتيعين رفاقه من الجراكسة في مناصب عليا ممهدا بذلك لقيامه بالسلطنة ، إلا أن المماليك البحرية وغيرهم من الأتراك كانوا يمثلون حجر عثرة أمامه ، إذ كانوا ما يزالون يتمتعون بنفوذ لا يستهان به آنذاك ممثلين بالأمير سلار([5]) .

وقد حاول السلطان الناصر محمد أن يتخلص من نفوذهم إلا أن محاولته فشلت ، الأمر الذي دعاه للتنازل عن عرش السلطنة والفرار إلى حصن الكرك([6]) ، فاقتنص بيبرس الجاشنكير

([1]) المقريزي : السلوك 1/ 798 – 800 .

([2]) أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة 1971م، 8/ 370 – 380 .

([3]) المقريزي : السلوك 1/ 931 – 937 .

([4]) الأستادار : المسئول عن البيوت السلطانية أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ص6 .

([5]) تذكرة النبيه 1/281 – 282 .

([6]) ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر 155 – 156 .

هذه الفرصة الذهبية لاعتلاء عرش السلطنة ليكون بذلك أول سلاطين الجراكسة في مصر([1])، إلا انه لاقى معارضة شديدة من المماليك الأتراك ، لأنهم لا يريدون للجراكسة اعتلاء عرش السلطنة ، الأمر الذي جعل بيبرس الجاشنكير يترك عرش السلطنة بعد جلوسه عليه عامين أو أقل (708هـ – 709هـ / 1308 – 1309)([2]).

فعاد السلطان محمد إلى سلطنته للمرة الثالثة سنة 709هـ([3])، ولكن حكمه لم يدم طويلا إذ مازالت القوة بيد الجراكسة الذين تمكنوا فيما بعد من تحريك أبنائه وأحفاده في فترة حكمهم وفقا لأهوائهم الأمر الذي أعاد للجراكسة ظهورهم على مسرح السياسة ، وفي زمن السلطان شعبان بن حسين استطاع برقوق الجركسي – وهو أحد كبار المماليك البرجية – الوصول إلى منصب الأتابكة ، فأخذ يعمل على جلب الجراكسة من جديد ولا سيما في زمن السلطان حاجي بن شعبان، وترتب على ذلك أن صار الجراكسة أصحاب السلطة الكبرى في البلاد إلى درجة جعلت برقوق يعزل حاجي بن شعبان ويتولى السلطنة سنة 784هـ([4]).

ومع استمرار تلك الأحداث شهدت سنة 1376م مصرع السلطان الأشرف شعبان([5])، وظهور الأمير برقوق كواحد من الجراكسة الكبار والذي سيتضح لنا فيما يلي أهمية دوره في التمهيد لحكم دولة المماليك البرجية (الجراكسة) .

السلطان برقوق ودوره في التمهيد لحكم الجراكسة :

وهو الأمير الذي حسنت سيرته ، وشمل الناس بأنواع الخيرات والفضائل ، كما أظهر تمسكا شديدا بأحكام الشريعة([6])، حيث يقول الصيرفي واصفا السلطان برقوق : "كان رجلا شهما شهما شجاعا باسلا فارسا ذا أدب وحشمة ووقار ومعرفة ورأي وتدبير وخبرة وكان على مكانة عظيمة من الرأي والرزانة والتعبد والتحمل وكان يلوح بين عينيه آثار الشجاعة والفروسية"([7]) ،

([1]) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، 223/8 .

([2]) ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر 156 – 176 .

([3]) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 8/9 .

([4]) النجوم الزاهرة 362/5 .

([5]) المقريزي : السلوك 3/ 476 –477 .

([6]) الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشي ، ، القاهرة 1970م ، 35/1–36 .

([7]) نزهة النفوس والأبدان 496/1.

كما امتدحه الخطيب بقوله : "كان كثير الإحسان للمحتاجين محبا لأهل العلم والخير والدين ، متواضعا معهم ، ولم يعرف لأحد من السلاطين قبله هذه الصفات"([1]).

وقد اتخذ برقوق مجموعة من الخطوات والإجراءات في التمهيد لحكم الجراكسة وكسب رضا العامة من الناس منها :

1- تعيين رفاقه من مماليك الجراكسة في المناصب العليا والوظائف الرئيسة في الدولة([2]).

2- اكتساب محبة عامة الناس وذلك من خلال إلغاء الضرائب والمكوس ، وسك عملة جديدة قوية خالية من الغش والتزوير ، الأمر الذي أدى إلى انتعاش اقتصاد الدولة([3]).

هذا على صعيد سياسته الداخلية ، أما على صعيد سياسته الخارجية فقد شهد عام 1381م قيام قوات المماليك البرجية بصد الهجوم الذي قام به التركمان على حلب ، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في تقرب عامة الناس وتأييدهم لحكم المماليك الجراكسة .

وفي سنة (1382م) ارتقى برقوق عرش السلطنة ليبدأ بذلك تاريخ سلطنة المماليك البرجية (الجراكسة) ([4]) ، وكانت أهم الخصائص التي ميزت تلك الدولة هي الخاصية التي استمدت منها اسمها ، ذلك أن معظم سلاطينها كانوا من الجراكسة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى اثنين من السلاطين هما خشقدم وتمربغا اللذان كانا من أصل يوناني([5]).

لقد حكم المماليك الجراكسة مصر والشام والحجاز مدة تزيد على إحدى وثلاثين ومائة سنة ، وتعاقب على حكم البلاد في هذه المدة أكثر من سبعة وعشرين سلطاناً لم تزد مدة الحكم على خمسة عشر عاماً إلا لأربعة منهم ، هم :

الأشرف قايتباي وقد حكم 29 سنة (872-901هـ) ، والأشرف قانصوه الغوري حكم 17 سنة (906-922هـ) ، والأشرف برسباي حكم 16 سنة (825-841هـ) ، والظاهر جقمق حكم 15 سنة (842-857هـ) ، أما باقي السلاطين فكانت مدة سلطنتهم تقل عن هذه المدة ، فمنهم من حكم سبع سنوات ، ومنهم من حكم سنة واحدة ، بل إن منهم من لم تتجاوز مدة حكمه عن الليلة الواحدة من أمثال "خير بك" الذي تسلم السلطة مساءً وخلع صباحاً ، وذلك عام 872هـ([6]).

([1]) نزهة النفوس والأبدان 496/1.

([2]) ينظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة ، القاهرة ، 265 .

([3]) ينظر : السابق 265.

([4]) المقريزي : السلوك 476/3 .

([5]) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 16/ 253 .

([6]) محمود شاكر : موسوعة التاريخ الإسلامي 71/7 .

وفي عهد السلطان **الأشرف برسباي** ، وفي السنة الثانية من توليه الحكم بالتحديد وصلته أخبار بأن الفرنج استولوا على مركبين من مراكب المسلمين وفيهما حوالي مائة مسلم ، فغضب وجاء رده على ذلك ردا مباشرا وقويا ، إذ تمثل هذا الرد في إصراره على إخضاع جزيرة قبرص لحكمه ، التي كانت قاعدة تنطلق منها الحملات أو الهجمات العسكرية البحرية ضد المسلمين حتى يتخلص نهائيا من المتاعب التي يسببها بقايا الصليبيين في هذه الجزيرة ، حيث أرسل الأشرف برسباي حملاته المتوالية في الأعوام (827-828-829) والتي تمكنت من تدمير ليماسول ميناء الجزيرة ، وأسر الملك القبرصي نفسه ، ثم استولوا على نيقوسيا عاصمة الجزيرة ، ورفعوا راياتهم على مبانيها ، وبذلك خضعت لسلطان المماليك الجراكسة([1]) ، ومما قيل في ذلك شعرا([2]) :

بشراك يا ملك المليك الأشرفي ... بفتوح قبرص بالحسام المشرفي
فتح بشهر الصوم تم له فيا ... لك أشرفٌ في أشرفٍ في أشرفِ
فتح تفتحت السموات العلى ... من أجله بالنصر واللطف الخفي
والله حف جنوده بملائك ... عاداتها التأييد وهو بها حفي

السلطان قانصوه الغوري :

وهو السلطان الذي تمتع بشخصية قوية ، حيث كان أقوى أمراء زمانه آنذاك ، ولعب دوراً هاماً في إمداد أمراء المسلمين في الهند بالقوات البرجية اللازمة لصد البرتغاليين عن دولتهم وذلك بعدما استنجد به أمراء الهند آنذاك ، كما ولعب دورا هاما في التصدي لجماعات العربان التي أثارت القلاقل والاضطرابات في أنحاء البلاد ، وقيامهم بسلسلة من الثورات التي هددت حالة الأمن والاستقرار في الدولة ، والتي قامت أيضا بحرق الأخضر واليابس وحاولت العبث والتخريب في البلاد([3]) .

السلطان طومان باي وغروب شمس الدولة البرجية :

وهو آخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، والذي لقب بالعادل طومان باي ، وذلك نظراً لأهمية الدور الذي قام به ، حيث قام بتثبيت نظام قضائي سليم في مصر يتبع للسلطة

([1]) ينظر : النجوم الزاهرة 14/ 275 -281 ، 14/104- 131 .
([2]) النجوم الزاهرة 14/131 .
([3]) ينظر : أسامة حسن : طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، الطبعة الأولى، دار الأمل، القاهرة 2000م، ص19 .

العليا مباشرة ، وهو نظر المظالم الذي يعنى بحقوق الناس من تعدي الدولة وموظفيها ويضع حداً لمن أراد الإفساد فيها ، بالإضافة إلى أنه جعل لنظر المظالم مكاناً خاصاً بالقلعة ، وهي مركز الحكم الجركسي([1]).

وقد اكتنف عهد طومان باي الكثير من المخاطر الخارجية التي أحاطت بالدولة الجركسية آنذاك ، والتي عمل طومان باي جاهدا على التصدي لها ، والتي تمثلت في ظهور قوة عظمى آنذاك ممثلة بالجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول ، حيث أراد السيطرة على دولة الجراكسة ، ولكن السلطان طومان باي عمل جاهدا على التصدي لقوات سليم العثماني الذي كان يمتلك سلاح البارود المتفوق ، أما مماليك الجراكسة ممثلين بقيادة طومان باي آنذاك فقد رفضوا هذا السلاح غير الإسلامي الأصل ، معتمدين بذلك على فروسيتهم واستخدامهم للسيف ، فكان ذلك سببا في هزيمتهم([2]) ، وكانت نهاية السلطان طومان باي على يد العثمانيين بعد معركة الريدانية عام 923 هجرية ، حيث دخلوا القاهرة وأنهوا حكم المماليك([3]) .

العوامل التي أدت إلى زوال دولة المماليك الجراكسة :

1- دور جماعات البدو والعربان في زعزعة حالة الأمن والاستقرار في البلاد ، وفتنتهم التي لم تنقطع ، إذ كانوا عاملا أساسيا في زوال دولة المماليك الجركسية ، خاصة حينما أتيحت لهم الظروف بوصول العثمانيين إلى مصر([4]).
2- ظهور الخطر البرتغالي الذي هدد دولة الجراكسة ، وذلك بعد أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة 892 هجري - 1487ميلادي([5]) .
3- تهديدات تيمورلنك وغاراته المتواصلة ، وذلك بعدما أعد جيوشا كثيفة زحف بها إلى غرب آسيا ، فخرب تبريز ، وقتل أهلها ، وهاجم بلاد التركمان والأكراد وتوجه بعدها إلى بغداد ، ثم حلب ودمشق ... ، ورغم استعداد الظاهر برقوق للقائه لم تحدث بينهما مواجهة حاسمة ، وإنما أوقع بجنوده إيقاعا جزئيا وغنم منهم الكثير([6]).

([1]) طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، ص17 .

([2]) ينظر : السابق 42.

([3]) ينظر : موسوعة التاريخ الإسلامي ، العهد المملوكي 7/72-73 .

([4]) طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر 19 .

([5]) شوقي عبد القوي عثمان حبيب : التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 2000 ، ص 126 .

([6]) ينظر : كنز الدرر 8/352 ، 370 - 380 . السلوك 5/141 .

4- ظهور الخطر العثماني خاصة بعد اقتراب حدود الدولة العثمانية من حدود الدولة المملوكية الأمر الذي أوجد نقطة احتكاك بين الطرفين ، إذ قام سليم خان – سلطان بني عثمان – وجيشه بمهاجمة المماليك الجراكسة وذلك في معركة مرج دابق في أغسطس سنة 1516م([1]) .

5- كما كانت هزيمة الأسطول المصري في موقعة ديو البحرية سنة 915هـ/1509م إيذاناً بسقوط دولة المماليك الجراكسة([2]).

وبعد مرور دولة المماليك الجراكسة بهذه الأخطار التي لا تحسد عليها ، كان لابد لها من مواجهة مصيرها المحتوم على أيدي العثمانيين ، حيث تواجه جيش قنصوه الغوري المملوكي – الذي كان في طريقه إلى حلب – مع جيش سليم الأول العثماني ، وكان قنصوه قد أسند قيادة جيشه لخير بك حاكم حلب([3]) ، والذي بدوره خان سيده قنصوه وأعلن هزيمة الجيش ، فمات قنصوه في الحال مهموماً مغتاظاً بعد أن حكم سبعة عشر عاماً . ودخل سليم الأول حلب منتصراً ، ثم زحف من سوريا إلى مصر وهنالك تقابل مع جيش مصر المملوكي الذي كان يقوده طومان باي الذي أصبح سلطاناً بعد وفاة سيده قنصوه الغوري ، وهزم الجيش المملوكي في معركة الريدانية سنة 923 هـ – 1517م ، وهرب طومان باي ولكنه ما لبث أن وقع في قبضة سليم الأول الذي أعدمه شنقاً على باب زويلة بالقاهرة لأنه رفض الاستسلام ، وبذلك يكون قد انتهى عصر دولة المماليك الجراكسة ، الذي كان نهايته إيذانا بتسليم الحكم لقوة إسلامية صاعدة هي دولة العثمانيين([4]).

([1]) ينظر : محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، ص 497- ص 500 ، ص 569.

([2]) عماد بدر الدين أبو غازي : تطور الحياة الزراعية زمن المماليك الجراكسة ، الطبعة الأولى 2000م ، ص34.

([3]) كان السلطان قنصوه الغوري وجيشه مع جمع من الفقهاء والقضاة في طريقه إلى حلب لمّا فرض عليه السلطان سليم الأول القتال .

([4]) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ، الطبعة الخامسة – المكتب الإسلامي 2000م ، 7/ 72 – 73 .

البيئة الاقتصادية :

شهد عصر المماليك الجراكسة فترات من الازدهار الاقتصادي حينما تولى حكم وإدارة البلاد سلاطين أقوياء أرسوا دعائم الأمن والاستقرار من أمثال بيبرس الجاشنكير ، والأشرف برسباي ، والظاهر جقمق ، والأشرف قايتباي ، وقنصوه الغوري وطومان باي ، وليس أدل عل انتعاش الحياة الاقتصادية في أيام المماليك الجراكسة من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك مثل دكاكين وحوانيت ووكالات وفنادق وكانت الفنادق توجد في كل أنحاء المدن المصرية من الإسكندرية إلى أسوان([1]) .

هذا ومن الملاحظ اعتماد الحياة الاقتصادية في العصر المملوكي على التجارة والصناعة والزراعة ، غير أن التجارة استأثرت بالنصيب الأكبر في الاقتصاد المملوكي الجركسي؛ حيث كانت التجارة العالمية تمر عبر حدود الدولة المملوكية ، وقصد التجار الأوروبيون موانئها للشراء والبيع ، الأمر الذي عاد على الدولة بالخير الوفير ، وقد اعتمدت دولة الجراكسة في دخلها الاقتصادي على مصادر متنوعة على النحو التالي :

أولا : الزراعة :

كانت الزراعة مصدر الثروة الرئيسة في عهد الجراكسة ، وكانت الأرض تنبت جميع المحاصيل المعروفة اليوم من حبوب وبذور وخضار وفاكهة وأزهار ، ومما كان يعوق تقدم الزراعة وازدهارها ما ينتج عن عدم وفاء النيل أحيانا ، إضافة إلى ما كان يفرض على المزارعين من ضرائب ، اضطر السلاطين فرضها لأمور طارئة تصب في مصلحة البلاد بشكل عام ، والتي منها على سبيل المثال شراء الأسلحة لمواجهة الأعداء في الحروب .

وقد كانت الأراضي الزراعية في مصر زمن الجراكسة مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطا ، للجنود عشرة قراريط ، وللأمراء عشرة ، وأربعة للسلطان ، وكان هذا الإقطاع محكوما بنظم وقوانين عسكرية صارمة تتيح للمقطع له الاستفادة من غلة الأرض ومحصولها كما تضمن عدم بيعها أو توريثها ، وفي حالة الإخلال بشروط الإقطاع ، أو انتهاء مدة الإقطاع ، أو وفاة المقطع له تعود الأرض للسلطان لإعادة توزيعها([2]).

([1]) ينظر : أسامة حسن : طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر 20 – 21 .

([2]) ينظر : بدائع الزهور في وقائع الدهور 397/1 .

ثانيًا : الصناعة :

ازدهرت في عهد المماليك الجراكسة كثير من الصناعات أيما ازدهار ، وبلغت درجة عظيمة من التقدم والرقي ، حيث كانت الصناعة رافدا من روافد الاقتصاد في عصرهم ، وكانت شريحة الصناع في المرتبة الثانية من حيث العدد بعد شريحة المزارعين ، توزعوا على ثلاثة أنواع من الصناعات ، الصناعات الحربية كصناعة المراكب والسفن ، وجميع أنواع الأسلحة من سيوف ورماح ومجانيق وغيرها ، والصناعات الغذائية كصناعة صنوف الأطعمة والأشربة والحلويات ، وصناعة الملابس ، وبناء المنازل والقصور ... ، وصناعة الأثاث وأدوات الزينة والزخارف وغيرها من التحف التي زخرت بها قصور الأمراء والسلاطين([1]) .

وقد تركزت معظم هذه الصناعات في مدينتي مصر والقاهرة ، وأحرز الصناع مهارة تستحق الإعجاب ، وإنما ساعدهم في بلوغ ذلك شيوع نظام الطوائف فقد كان لكل حرفة طائفة ولكل طائفة شيخ يهيمن على شئون أفرادها ويوجههم التوجيه الفني الصحيح ويرعى مصالحهم ولابد للصبي قبل أن يصبح صانعا ماهرا أن يسلك عدة خطوات ثم يحصل بعد ذلك من شيخ الطائفة على شهادة بأنه حذق الصنعة ، فينادى به الشيخ معلما ، ويصبح عضوا في طائفة حرفته ، وكان لكل حرفة مشايخها وأعلامها وطبولها وتمثل في الاحتفالات العامة كمولد النبي ووفاء النيل ورؤية هلال رمضان ، وتمثل هذه الطوائف اليوم نقابات العمال إلى حد ما ومن أهم الصناعات التي ازدهرت بالقاهرة في عصر مماليك الجراكسة صناعة المنسوجات والفرش والستور والخيم والسروج وصناعة الأواني النحاسية المكفتة كالأباريق والصحون والطسوت والموائد والثريا والمقالم... الخ وصناعة الزجاج خصوصا المطلى بالمينا فصنعت منه المشكاوات والدوارق وصناعة الخزف والبلور الصخري والتحف الخشبية المطعمة بالسن هذا بالإضافة إلى الصناعات الحيوية التي تتصل بمعاش الناس وحياتهم كصناعة السكر والحلوى وعصر الزيوت وصناعة القلل والأزيار والبرانى وصناعة الحصر والبناء وصبغ المنسوجات وغير ذلك من الصناعات التي لا تزال موجودة حتى اليوم ، كذلك قامت بالقاهرة صناعة الأسلحة وأدوات الحرب كالسيوف والرماح والسهام والأقواس والدروع وأدوات الرياضة والصيد وصناعة السفن...([2]) .

([1]) ينظر : المقريزي : السلوك 527/1 .

([2]) ينظر : ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، الطبعة الأولى ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات 2002 ، 429/3 .

ثالثاً : التجارة :

لقد نعمت مصر في عهد الجراكسة بمصدر آخر من مصادر الغنى والثروة ملأ خزائنهم بالأموال الطائلة وهيأ لهم حياة العز والنعيم ومكنهم من بناء القصور الفخمة والمساجد العظيمة ، على انه ومهما يكن للزراعة والصناعة من أهمية في عصر سلاطين الجراكسة ، فإن كافة الشواهد تدل على أن التجارة صار لها المقام الأول في النشاط الاقتصادي في ذلك العصر وأنها كانت المصدر الأول للثروة الهائلة التي انعكست صورتها في منشآت مماليك الجراكسة وأمرائهم ، وفي حياتهم الخاصة والعامة([1]) ، تلك هي التجارة الشرقية التي كانت تخترق مصر أو الشام في طريقها إلى أوربا وكان كلا الطريقين في حوزة مماليك الجراكسة فيتحكمون بتلك التجارة بما يصب بمصلحة بلادهم وبما يعود عليها من خير وفير ينشط حركة البيع والشراء ويثرى التجار بدورهم وقد نعم هؤلاء بالغنى والثروة أيضا حتى أصبح لهم مركز ممتاز بين طبقات الشعب ومكانة ملحوظة في سياسة البلاد وسير الأمور فيها وقد استلزم تفاقم حركة النشاط التجاري بناء الخانات والفنادق والأسواق ففي الخانات والفنادق ينزل التجار ببضائعهم وسلعهم ودوابهم ويختزنون بضائعهم في المخازن والحواصل وتؤدى لهم الأعمال المصرفية وتفد عليهم تجار التجزئة لشراء حاجياتهم من البضائع التي يعرضونها للبيع في حوانيتهم بالأسواق .

*** الخراج والضرائب :**

لقد لجأ سلاطين المماليك إلى فرض ضرائب ومكوس جديدة على طبقات المجتمع خاصة طبقة التجار، مضطرين بهذا الأمر لجمع الأموال اللازمة التي تمكنهم من تجهيز الحملات الحربية لحماية البلاد الجركسية من خطر الأعداء([2]) ، وربما لجأوا إلى جمع خراج الأرض من الفلاحين والمزارعين([3]) ، حيث كانت الدولة تتقاضى ضريبة تتراوح بين الخمسة والعشرة في المئة من قيمة البضائع والسلع التجارية([4]) .

([1]) ينظر : سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة ، القاهرة، ص313.

([2]) ينظر : عبد الرحمن محمود عبد التواب : قايتباي المحمودي ، الأعلام (20) ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1978م، ص49.

([3]) ينظر : محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان 1997م، ص567.

([4]) يوسف درويش غوانمة : تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، طبعة دار الحياة للنشر والتوزيع عمان ، الأردن 1982م ، ص 90 .

*** الأسواق :**

كانت أسواق مصر في عصر المماليك الجراكسة تخضع لرقابة الدولة ، وتمثلت سلطة الدولة على الأسواق في عدة أمور منها الموظفين المسئولين عن مراقبة الأسواق ، والضرائب وتنظيم الأسواق وتخطيطها([1]) .

ومن المشاكل التي كانت تواجه الناس أحيانا وجود بعض التجار والبائعين المستغلين الذين كانوا يرفعون من أثمان بضائعهم ، ولكن سلاطين الجراكسة كانوا لهم بالمرصاد ، ومن ذلك مثلا قيام السلطان طومان باي بمعاقبة سمسارا للغلال لأنه رفع سعره ، الأمر الذي جعل طومان باي يقوم بوضع نظام ديني كان من ركائز العدالة الإسلامية في العصور الوسطى وهو نظام الحسبة ، وهي خدمة لمصالح سكان المدن على الخصوص من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية الأخلاقية على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكان طومان باي يعالج معايش الناس بالتسعيرة الجبرية التي تلزم البائع الأمانة في بيعه ، وفي المقابل ترضي المشتري بالأسعار المعقولة([2]).

*** أوجه الثراء والترف وأوجه الفقر والشقاء :**

عاش السلاطين الجراكسة والأمراء والوزراء ومن لف لفهم من كبار المُلاك والتجار حياة البذخ والترف ، وبالغوا في تشييد القصور الفخمة وتأثيثها ، وجلبوا الحلي والتحف الفنية من مختلف أصقاع الأرض ، وجلبوا الطهاة المهرة إلى قصورهم ، وبالغوا في عدد الجواري والخدم العاملين فيها([3]).

لقد اقتضت سنة الله عزوجل في خلقه أن يكون منهم الغني والفقير والشقي والسعيد حيث لا يخلو مجتمع من المجتمعات من هذه الطبقة ، فالفقر ليس عيبا لكن العيب انعدام التكافل الاجتماعي الذي حث عليه الإسلام ، حيث ينبغي على الغني أن يشعر بالفقير وينبغي على السعيد أن يشعر بالشقي ، كما وينبغي على المجتمع أن يكون متلاحما متكافلا كمثل الجسد الواحد الذي كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ...

([1]) قاسم عبده قاسم : أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة 1978 ، ص 22 .

([2]) ينظر : أسامة حسن ، طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، ص 18 .

([3]) النجوم الزاهرة : 174/7 .

وفي ظني أن مجتمع الجراكسة كان متلاحما متكاتفا ، ووجد الفقراء غالبا من يهتم بتعليمهم وتوفير الطعام لهم ، ومن صور هذا التكافل نذكر :

- لما حج السلطان قايتباي في سنة 884هجرية بذل كثيرا من المال للفقراء في طريقه وتصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار ، ولما دخل المدينة المنورة في أوائل عام 885 هجرية تصدق على فقرائها بخمسة آلاف دينار ، ثم إنه لما عاد إلى القاهرة من حجه هذا أخرج ستين ألفا من الدنانير الذهبية ليشتري بها قاضي قضاة الشافعية ما يناسب من أماكن أو ضياع أو غيرها ويجعلها وقفا لله على فقراء المدينة([1]) .
- أيضا في سنة 912هجرية تجمع عدد من الفقراء في يوم عاشوراء بأمر السلطان الغوري وكانوا جمعا غفيرا ، ونزل السلطان بنفسه ووقف فوق سلم المدرج وصار يعطي كل إنسان من الفقراء رجلا أو امرأة ، كبيرا أو صغيرا ، أشرفيا من الذهب ، وقيل إنه فرّق في ذلك اليوم ما يقارب ثلاثة آلاف دينار ، وقد كرر ذلك العمل نفسه في عام 914 هجرية([2]) .

ومع ذلك فلم يكن عصر الدولة المملوكية الجركسية كله عصر رخاء وازدهار ، فقد مرت البلاد أحيانا بأوقات عصيبة ساد فيها القحط ، وقل هطول الأمطار ، وانخفض منسوب المياه في الأنهار والترع ، فقلت المحاصيل وارتفعت الأسعار ، وانتشر الفقر ، وفتكت المجاعة بالناس ، وانتشرت الأمراض والأوبئة([3]) وكل ذلك كان ناجماً عن عدة أسبابٍ مجتمعة ، أوصلت الأحوال الاقتصادية في البلاد الجركسية إلى هذا المنحنى الخطير ، كما سيتضح فيما يلي .

الأسباب التي أدت لتدهور الحالة الاقتصادية لدولة الجراكسة :

بعد هذا الازدهار الاقتصادي الذي شهده عصر المماليك الجراكسة ، وقع مالم يكن بالحسبان ، حيث تكالبت العديد من الأحداث الجسام على هذه الدولة ، الأمر الذي زعزع الاستقرار السياسي والاقتصادي ، ومن هذه الأحداث نذكر :

1- قيام جماعات من البدو والعربان بتخريب الأسواق ونهبها وسرقتها ، مما أدى إلى تدهور الحالة الاقتصادية للبلاد([4]) .

([1]) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور 192/2 ، 194 .

([2]) السابق ج4 ، حوادث عام 912-914 هجرية .

([3]) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره محمد زيادة ، القاهرة 1940م ، ص 41 ، ص42.

([4]) أسامة حسن : طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، ص 19 .

2- ازدياد نفوذ البرتغاليين في الهند ، حيث كان السلطان قانصوه الغوري يدرك تمامًا أن ازدياد نفوذ البرتغاليين في الهند قد يقضي على مصالح البلاد التجارية ، وقد تأكد له هذا بصورة عملية عندما أرسل في عام 910 هـ / 1504م أسطولاً تجاريًا إلى ساحل مالابار ، وقد شحن – كالمعتاد – كميات ضخمة من التوابل والسلع الهندية ، وأثناء عودة السفن حملت معها عددًا كبيرًا من أمراء الهنود ، وعددًا من المسلمين في طريقهم إلى الحج ، لكن هذه السفن لم تصل كاملة إلى ميناء جدة ؛ إذ هاجمتها سفن الأسطول البرتغالي في مياه الهند ، وصادرت معظم شحناتها من التوابل والسلع الهندية . وقد أثارت هذه الأنباء ثائرة السلطان الغوري ، فقرر إرسال أسطول حربي إلى مياه الهند مؤلفًا من خمسين سفينة ، وعيّن عليه الأمير حسين كردي .

تجمع الأسطول المملوكي في ميناء جدة ، ثم انطلق في عام 913 هـ / 1507م إلى سورات في مقاطعة جوجيرات ، وكان أمراؤها حلفاء للمماليك ، وفاجأ الأسطول البرتغالي بقيادة "لورنزو دالميدا" أو "ألميدا الصغير" وأوقع به الهزيمة عند شول إلى الجنوب من بومباي في العام التالي ، وقتل القائد البرتغالي في المعركة([1]) .

3- الغزو المغولي الذي فتح طريق آسيا إلى أوروبا وبخاصة أنه ربط الصين والهند بالمسالك البرية إلى البحر الأسود .

4- قيام دول أوروبا باستكشافات بحرية كان قصدها البحث عن طريق بحري إلى الهند والصين غير طريق البحر الأحمر الذي يقع في أملاك الدولة المملوكية([2]).

5- كذلك عاشت دولة الجراكسة أسوأ أحوالها المعيشية نتيجة للمجاعات المتعددة ، فقد أنهكت المجاعات مصر في فترات عديدة من العصر المملوكي ، وكان أغلبها يحدث بسبب توقف النيل عن الفيضان فيتوقف الزراع عن الزراعة ، وترتفع أسعار المواد الغذائية والقوت الضروري ، وكان يصاحب هذه المجاعات تفشي الأوبئة وخاصة الطاعون وكان أشهرها الطاعون الأسود([3]).

6- كذلك وقوع الزلازل حيث كانت البيوت ومآذن المساجد تتساقط([4]).

([1]) ينظر : أ حمد دراج : المماليك والفرنج ، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1961م ، ص 137.

([2]) ينظر : محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام 568.

([3]) ينظر : المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص 41 ، 42 = ابن إياس : بدائع الزهور 287/1 .

([4]) ينظر : عبد الرحمن محمود عبد التواب ، قايتباي المحمودي ص132.

إن هذه الأحوال السيئة في مصر جعلت الدولة المملوكية الجركسية في أشد حالات الإعياء والانهيار ، وكان ذلك من سوء حظ طومان باي الذي تولى السلطنة عقب تراكم جميع هذه العوامل السيئة([1]) .

البيئة الاجتماعية :

اتصفت الحياة الاجتماعية في عصر مماليك الجراكسة بالحركة والنشاط والصخب ، هذا فضلا عن الثراء والترف ، والمتمعن في مجتمع مماليك الجراكسة من الداخل ، يجده ينقسم إلى طبقات أو فئات متمايزة عن بعضها ، حيث لكل طبقة صفاتها وميزاتها التي تفرقها عن باقي طبقات المجتمع ، فمثلا نجد طبقة المعممين والتجار استطاعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في المجتمع ومستوى لائق من المعيشة ، في حين ظل غالب أهل البلاد من العوام والفلاحين يحيون حياة اقرب إلى البؤس والحرمان([2]) .

لقد قسم ابن خلدون أفراد المجتمع المصري إلى طبقتين متمايزتين ، هما :

- الطبقة الحاكمة : وتشمل السلطان والأمراء والوزراء وقادة الجند وكبار موظفي الدولة .
- طبقة الرعية : وتشمل كل فئات الشعب وشرائحه .

وقد اقتصرت الطبقة الحاكمة على المماليك البرجية ، وغالبيتهم من أصول جركسية وبعض الذين أسلموا من التتار ، أما أبناء الشعب فلم يسمح لهم بالوصول إلى المناصب العليا في الدولة كقيادة الجيش أو نيابة السلطنة([3]).

أما المقريزي فيقسم فئات المجتمع المصري إلى سبعة أقسام على النحو التالي :

- القسم الأول : أهل الدولة : وهم بحسب ترتيب المقريزي لهم يقعون في الطبقة الأولى ، وذلك نظرا لكافة الامتيازات التي تمتعوا بها من وسائل النعيم والرفاهية ، وتضم السلاطين والوزراء والأمراء الذين استأثروا بكثير من خيرات البلاد وعائدات التجارة والزراعة والضرائب وغيرها .
- القسم الثاني : أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية : وقد دمج المقريزي في تصنيفه أصحاب هذه الطبقة مع الطبقة الثالثة .
- القسم الثالث : الباعة ، وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أهل البز ، ويلحق بهم أهل المعايش وهم السوقة : حيث اعتبرهم المقريزي طبقة متوسطة الحال حيث كان بعضهم يحاكي السلاطين في حياتهم وقصورهم ، وكان المماليك يقترضون منهم أحيانا وخاصة في

([1]) أسامة حسن : طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، ص 20 – ص 21 .

([2]) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص37-ص48 .

([3]) ينظر : عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة 1321هـ ، ص 183 .

الحروب وكانوا كثيرا ما يتعرضون لمصادرة الأموال أو القروض غير المستردة ، وكان المماليك أحيانا يشاركونهم في تجارتهم ، أو يزيدون عليهم في قيمة البضائع وأثمانها([1]).

- القسم الرابع : أهل الفلح : وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف ، حيث كانت تفرض عليهم الضرائب أحيانا وأحيانا أخرى تجمع منهم الأموال ، هذا عدا ما كان ينتج عن قلة الماء وشح النيل ، ولكن في حالات أخرى تمتع بعضهم بالغنى والرفاهية ، وذلك حين توفر الماء ووفرة المحصول .
- القسم الخامس : وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم : وقد صنفهم المقريزي في طبقة متوسطة بين الفلاحين وأصحاب المهن الصغيرة أو البسيطة ، وهذا غريب بالنسبة للفقهاء ، حيث كانوا يجدون إكراما وحفاوة من السلاطين ويشغلون المناصب البعيدة عن المناصب العسكرية ، كما أن السلاطين اهتموا بإجراء الأوقاف على الفقهاء وطلاب العلم وعلى المؤسسات التعليمية التي انتشرت بشكل كبير في تلك الآونة .
- القسم السادس : أرباب الصنائع والأجراء ، وأصحاب المهن : لقد وضع المقريزي أصحاب هذه الطبقة في المرتبة السادسة من تصنيفه نظرا لأن صنائعهم وحرفهم لم تكن تدر عائدا كبيرا عليهم .
- القسم السابع : ذوو الحاجة والمسكنة : وهم الفقراء والذين يتكففون الناس ، الذين لا يتقنون مهنة ولا يحترفون عملا يوفر لهم بعض الدخل ، فجل اعتمادهم على الصدقات ، أو الأجر الذي يأخذونه نظير القيام بعمل معين ، حيث جمعت هذه الطبقة بين الفقراء واللصوص والحرافيش الذين كانوا يجلسون على أبواب المساجد للسؤال دون الدخول للصلاة فكانت تلك حرفتهم الرئيسة([2]) .

الحركة العمرانية :

شاع في عصر الجراكسة الازدهار العمراني والذي تمثل في بناء القصور والجسور وشق الترع وتشييد الأبنية ، حيث اهتم مماليك الجراكسة بالحركة العمرانية اهتماما بالغا ، فعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر بعضًا من صور هذا الاهتمام :

1- قيام **السلطان برقوق** بإنشاء جسراً على ضفة نهر الأردن بالغور طوله مائة وعشرون ذراعا في عرض عشرين ، كما وأصلح خزائن السلاح بثغر الإسكندرية ، وسور مدينة دمنهور ليقيها من هجمات البدو ، وعمّر الجبال الشرقية بالفيوم بالناس ليقيها من هجمات البدو ، كما عمّر زاوية البرزخ بدمياط وقناة العروب بالقدس ، وبنى بركة بطريق الحجاز إلى

([1]) ينظر : إغاثة الأمة ص38 .

([2]) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص 72 – 73 . وينظر : البداية والنهاية 293/14 .

الحج([1])، كما وجدد السلطان برقوق القناة التي تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل ، وأصلح الميدان تحت القلعة وزرع به بعض النباتات ، وبنى صهريجا للماء ، ومكتبا يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل ، وجعل عليه وقفا ، كما أقام طاحونة بالقلعة وسبيلا تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة([2]).

2- قيام السلطان الأشرف **أبو النصر قايتباي** (872-901هجرية) بإنشاء برج عظيم يكون كالحصن لمدينة الإسكندرية وقد أقيم في مكان منارها القديم عام 882 هجرية ، كما بنى كثيرا من العمائر النافعة ، وأصلح بعض المساجد كالجامع الأزهر والحرم النبوي الشريف الذي شبت فيه نار بعض الصواعق فتسببت بتلف جزء منه فجدده الأشرف قايتباي عام 886 هجرية ، وله عدد من المدارس والمساجد وضروب عدة من أعمال البر([3]) ، رمم السلطان قايتباي أيضا في سنة 879 هجرية مسجد عمرو ورتب ثلاثين صوفيا يقرءون في تربته الخاصة وبنى لهم عدة بيوت حولها للسكنى ، وأجرى عليهم الأرزاق من الخبز والزيت والصابون وغيره([4]).

3- قام السلطان الأشرف **قانصوه الغوري** (906-922 هجرية) بالعديد من أعمال الحركة العمرانية ، حيث أنشأ بجهة العقبة مخافر وأرصفة وفنادق وسواقي وما إلى ذلك مما يحتاج إليه الحجاج في ذهابهم إلى الحجاز أو إيابهم منه ، كما وأقام المئذنة ذات الرأسين بالجامع الأزهر وجدد خان الخليلي ، وأنشأ ميدان القلعة وجمّله بالأشجار المجلوبة من الشام وغيرها وأجرى إليه الماء من النيل بوساطة سواقي متعددة ، كما أسس كثيرا من الجسور على خلجان النيل ، وخصوصا جسر الفيوم ، وله منشآت كثيرة غير ذلك مما لا يتسع المجال لذكرها([5]) .

وقد وجدت في هذا العصر حرف كثيرة تتصل بالبناء أو تختص بفن العمارة الذي ازدهر في هذا العصر كالبنائين والحجارين والقطاعين والصقالين والمرخمين والمبيضين والدهانين والطيانين والجباسين ...([6]).

([1]) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 12/113-114 .

([2]) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 12/115 .

([3]) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي 1/55 .

([4]) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور 2/153 .

([5]) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي 1/62 .

([6]) ينظر : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، التاريخ السياسي والاجتماعي ، الطبعة الأولى ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة 1998م، ص333 .

الاحتفالات التي كان يقيمها أمراء وسلاطين الجراكسة :

كثرت الاحتفالات التي كان يقيمها السلاطين والأمراء الجراكسة ، وقد تميزت هذه الاحتفالات بأن اتخذت طابعا من البذخ والترف والإسراف والمبالغة في إقامة هذه الاحتفالات حيث تنوعت هذه الاحتفالات ، متخذة شكلين على النحو التالي :

- **الأول : الأعياد الدينية :** ففي هذه الأعياد كان الناس يتبادلون التهاني ، ويقيمون الولائم ، ويتصدقون على الفقراء ، ويبالغون في إظهار السرور ، وربما جاءت هذه الأعياد مصحوبة ببعض المواكب – مثل الاحتفال بدوران المحمل – وعندئذ يخرج الناس من كل مكان للفرجة ، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بالحرير والحلي([1]) .
- **الثاني : الاحتفالات القومية :** والتي من أمثلتها الاحتفال بوفاء النيل ، أو اعتلاء سلطان جديد العرش ، فكان السلطان عادة يشق القاهرة في موكب حافل ، وقد فرشت الشوارع بشقق الحرير ، وأقام الأمراء القلاع – وهي أقواس النصر – في طريق السلطان ، وتتضاعف مظاهر الفرح والبهجة إذا كان السلطان عائدا منتصرا من ساحة الحرب ، إذ يبالغ الأمراء والناس في الزينة ، ويقوم نائب السلطنة بإحضار سائر مغاني العرب من أعمار مصر كلها([2]).

فمثلا أقام السلطان قايتباي حفلا بمناسبة ختان ابنه محمد ، وقد احتفل بختانه في رجب سنة 895 في القلعة ، واستمر هذا الحفل الذي اجتمع فيه سائر المغاني سبعة أيام ، وأمر السلطان أن تزين القاهرة فزينت ، حتى زين داخل الأسواق ، كان هذا الحفل مشهوراً بما انفق فيه من أموال ، هذا إضافة إلى حفلات المصاهرات التي كانت تتم غالبا بين أسر الطبقة الحاكمة ، والتي كانت مظهرا من مظاهر البذخ والإسراف وحب الظهور([3]) .

الزخرفة والفنون :

أما الفنون في عصر الجراكسة فنجد أنها وصلت حدَّ الروعة والإتقان والرقي ، ويشهد على ازدهار فن النحت على الخشب في العصر المملوكي أن الفنانين استطاعوا أن يبدعوا في زخرفة الحشوات بالرسوم الدقيقة وابتكار أشكال في النحت على الخشب أكثر اتقانا مما كان عليه الوضع في العصر الأيوبي ، ذلك أن فناني عصر الجراكسة ابتكروا أشكالا جديدة من المراوح النخيلية ، ووحدات من الزخارف النباتية كما شاعت في ذلك العصر الزخارف الهندسية المؤلفة

([1]) محمد بن عبد الرحمن السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر 1896م ، ص13 – 14 .

([2]) المقريزي : كتاب السلوك 138/1 .

([3]) ابن إياس : بدائع الزهور 271/3 .

من حشوات صغيرة تمثل أشكالا سداسية الأضلاع تنتظم حول شكل نجمي في الوسط ، وقد استخدمت في الحفر أخشاب متباينة الألوان ، طعِّمت أحيانا بالأبنوس والعظم([1]).

كذلك ازدهرت في عصر مماليك الجراكسة صناعة الشبكيات من الخشب المخروط المعروفة باسم المشربيات الخاصة بالنوافذ وواجهات البيوت ، هذا فضلا عن التحف الدقيقة المصنوعة من الخشب مثل : الدكك والكراسي والصناديق ، وغيرها([2]) .

وقد طال هذا الفن صناعة المعادن ، حيث امتازت التحف المعدنية التي ترجع إلى ذلك العصر بصفات خاصة وطابع مميز ، ذلك أنها جمعت بين الزخارف النباتية التقليدية ، وزخارف جديدة شاع استخدامها في ذلك العصر مثل : رسم أزواج من الطيور مرتبة داخل معينات على الأباريق([3]) ، كما زخرفت أيضا الكؤوس والأباريق والقوارير والمشكيات الزجاجية والتي من أمثلتها : دورق من الزجاج المموه بالمينا في متحف برلين ، والمينا عليه متعددة الألوان بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، وعليه تذهيب ما زال محتفظا ببريقه وعلى رقبته كتابة بالخط الثلث الجميل([4]).

وسائل الترفيه في عصر مماليك الجراكسة :

لقد تنوعت وسائل الترفيه التي لجأ إليها عامة الشعب ممثلين بمماليكهم الجراكسة في أوقات الفراغ ليروحوا بها عن أنفسهم ، ولعل من أهم وسائل التسلية والترويح عن النفس آنذاك ما يلي :

- **مجالس العلم والوعظ والأدب :** حيث كان العلماء يتدارسون العلوم فيما عرف بمجالس العلم التي حرص الناس على حضورها ، كما كان سلاطين الجراكسة يحضرون هذه المجالس، بل يشاركون فيها مشاركة ايجابية ، فمن هذه المجالس العلمية التي كان يقيمها العلماء والسلاطين على سبيل المثال لا الحصر ، حرص السلطان الغوري على عقد المجالس العلمية والدينية في القلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع ، وكانت تبحث

([1]) م.س.ديماند : الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة 1982م ، ص 122 .

([2]) محمود محمد الحويري : مصر في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، عين للدراسات والبحوث 1996م، ص 287، 288.

([3]) ديماند : الفنون الإسلامية ، ص 155.

([4]) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار الرائد العربي ، 1981م ، ص 601 .

في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية التي تنافس فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء([1]).

- **الألعاب الرياضية** : والتي تمثلت بشكل كبير في ألعاب الفروسية والرماية ، وهي تتفق مع طبيعة الجراكسة في كونهم فرسانا مغاوير حربا وسلما ، ففي عهد السلطان قنصوه الغوري أصبح لألعاب الفروسية بأنواعها شأن كبير ، فقد تكرر عرض الرماية أمام السلطان في مواضع متعددة وبحضور قصاد السلطان ، الأمر الذي أدى إلى تفنن الفرسان في ألعابهم ، وكان السلطان ينعم عليهم بالمال والخلع([2]).

كذلك ركوب السلطان قايتباي للرماية والعودة في موكب حافل ، حيث في أحد المرات بينما كان يسوق الفرس انقلب به الفرس وكسرت ساقه . وقد اعتاد السلطان الأشرف قايتباي أن يمتحن بعض الجراكسة في فنون الفروسية من وقت لآخر ، ففي سنة 877 هـ/1473م عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا بين يديه حتى يمتحنهم في ذلك([3]).

البيئة الثقافية والفكرية :

شهد عصر المماليك الجراكسة ازدهارا علميا كبيرا ونشاطا ثقافيا رائعا ، فعلى الرغم مما أطلقه بعض الغافلين عن دور هذا العصر في نتاجاته العلمية والأدبية من عبارات الفشل والانحطاط والتخلف بحق هذا العصر ، إلا أن كل ذلك لم يحجب دور المماليك الجراكسة في الحياة العلمية والأدبية ، لقد تميز هذا العصر بازدهار شتى المعارف ومختلف العلوم ، وذلك على النحو التالي :

1- كان بمثابة الوعاء الذي وسع تأليف أكثر الموسوعات والمراجع في مختلف العلوم والفنون ، فلولا نتاجه العلمي والأدبي لما كان من الممكن وصل تيار العلم والأدب عند العرب قبل هذا العصر بالتيار نفسه بعده ، وتعويض الخسارة التي لحقت هذه الأمة على أيدي التتار والصليبين والفرنجة في المشرق أو المغرب([4]).

2- الإبقاء على حياة اللغة العربية ، حيث كان لهذا العصر فضلٌ كبيرٌ في حماية اللغة العربية من الضياع ، وقد صرح بذلك كثير من مؤرخي الأدب ، أمثال الأستاذ جرجي زيدان الذي

([1]) لطفي أحمد نصار : وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص 24 .

([2]) لطفي احمد نصار : وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر ، ص 193 .

([3]) السابق 192 .

([4]) أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986 ، ص73 .

يُرجع الفضل في بقاء اللغة العربية وآدابها في مصر والشام وهما في حوزة جراكسة المماليك([1]) .

دور أمراء وسلاطين الجراكسة في النهوض بالعلم وتشجيع العلماء :

لقد اهتم أمراء وسلاطين الجراكسة بالنشاط العلمي والأدبي اهتماما كبيرا فقاموا بإنشاء المدارس وإلحاق المراكز التعليمية بالمساجد والزوايا والخوانق والربط ... هذا لأنهم اتخذوا مصر موطنا والإسلام دينا والعربية لغة ، وعضدوا العلماء وقربوا الأدباء وشدوا أزر المعلمين ، وقد نبغ في ظلهم كثير من المشهورين([2]) من أمثال الظاهر برقوق والأشرف خليل([3]) والسلطان قانصوه الغوري الذي نبغ في فن الشعر([4]) وغيرهم الكثيرين .

لقد حرص سلاطين الجراكسة على تشجيع العلماء والفقهاء والأدباء ، وبذلوا من أجلهم المال الكثير ، وولوهم المناصب الرفيعة حتى يغذوا السير في التأليف وجمع شوارد العلوم ، الأمر الذي جعل هذا العصر يمتاز بنشاط الحركة العلمية نشاطاً فريداً فليس هناك فن من فنون المعرفة أو لون من ألوان الثقافة إلا وتطرق إليه علماء هذا العصر وعالجوه ، ويشهد على ذلك هذا التراث الضخم من المؤلفات والكتب الذي خلفه لنا عصر المماليك الجراكسة ، والذي لم ينشر منه سوى القليل ، على أن المتأمل لهذا التراث يجد الموسوعات الضخمة التي جمعت فأوعت([5]).

وقد عبر بعض أهل ذلك الزمان عن دهشتهم من كثرة عدد المدارس ، من ذلك قول ابن بطوطة : "لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"([6]) ، وكذلك قول القلقشندي : "إن هؤلاء السلاطين بنوا بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها"([7]) . ومما قاله الشعراء في تقريظ بعض تلك المدارس قول ابن العطار في مدرسة أنشأها الظاهر برقوق سنة 786هجرية([8]):

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة فاقت على إرم مع سرعة العمل

([1]) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، طبعة دار الهلال ، القاهرة 111/3 .

([2]) عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي ، العصر المملوكي ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر بيروت – لبنان ، 1989م ، ص 401 .

([3]) السلوك : 7/ 394 . النجوم الزاهرة : 7/ 182 .

([4]) أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ص 74 .

([5]) السابق 73 .

([6]) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التراث ، بيروت 1968م، ص70 .

([7]) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية 1913 ، 367/3.

([8]) محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعرا وناقدا ، طبعة دار قتيبة 1982م ، ص 35 .

يكفي الخليلي أن جاءت لخدمته شم الجبال لها تأتي على عجلِ

وإجمالاً لم يخل عصر أحد السلاطين الجراكسة من تشييد مدرسة ، أو بناء جامع فيه مدرسة ، أو خزانة كتب ، أو تأسيس كُتَّاب للأطفال ، أو دار قرآن للأيتام ، أو دار حديث للطلاب ، لقد كانت في هؤلاء السلاطين والأمراء غيرة على الدين ، واندفاع إلى الذود عن أهله ، ورغبة في رعاية المؤلفين والعلماء ، وإن العلم والأدب والعربية قد أفادت من هذه الرعاية فوائد جمَّة ، حيث تميز هذا العصر بظهور الموسوعات الكبرى في الأدب ، والنحو ، وعلم الحديث ، والفقه ، والتاريخ ، كما تمَيز أيضاً بعدم التخصص ، فالمؤلف يكتب في شتى العلوم([1]).

ولذلك فإن نظرنا في معاجم اللغة فإننا نجد أكثرها استعمالاً وانتشاراً هو لسان العرب لابن منظور (جمال الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة 817 هـ) ومختار الصحاح ، إضافة إلى كتب الأدب المشهورة مثل : النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (يوسف بن تغري المتوفى 874هـ)، والسلوك للمقريزي (تقي الدين أبي العباس المتوفى 885هـ) ، وتاريخ ابن خلدون ، وفي الثقافة العامة : مقدمة ابن خلدون (ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن ابن محمد م 808 هـ)، وصبح الأعشى للقلقشندي (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي المتوفى 821هـ)([2]) ، وغيرها الكثير من الكتب في شتى المجالات والتي لا يتسع المجال لذكرها ... إن المتأمل لتراثنا الفكري والعلمي يلاحظ غلبة الكتب المؤلفة في العهد المملوكي الجركسي([3]) .

وأذكر على سبيل المثال لا الحصر مقتطفات من الحياة العلمية لبعض المماليك الجراكسة ، والتي تدل على مدى اهتمام الجراكسة بالعلم والأدب آنذاك :

- اهتم السلطان برقوق اهتماما كبيرا بالعلم والعلماء ، إذ افتتح مدرسته المشهورة التي عرفت باسمه ، واستقدم لها عددا من العلماء من كثير من أنحاء العالم العربي([4]) ورتب لها صوفية بعد عصر كل يوم ، وجعل لها سبعة دروس قام بتدريسها علماء المذاهب الأربعة ، ثم جعل بها درسا للتفسير ، ودرسا للحديث ، وآخر للقراءات وأجرى على جميع مدرسيها وطلابها في

([1]) بكري شيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين ، بيروت 1979م ، ص 59 – 60 .

([2]) محمد بن طولون الصالحي الدمشقي : إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط2 ، دار الفكر ، دمشق – سوريا 1984م ، ص5 ، 6 .

([3]) إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، ص5.

([4]) راجع : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة 1968م ، 2/ 235 – 236 .

كل يوم الخبز واللحم ، ورتب لهم مخصصات شهرية من الحلوى والزيت والصابون والدراهم وأوقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضي والدور ونحوها([1]).

- عُرف عن الأشرف قايتباي الاشتغال بالعلم وكثرة مطالعة الكتب ، وله أذكار وأوراد جليلة كانت تتلى في المساجد إلى ما بعد الفتح العثماني([2]) ، وهو الذي بنى مدرستين عظيمتين في الحجاز ومدرسة بالخانكاه ومدارس أخرى في أماكن متفرقة([3]) كما وأحب السلطان ططر إنشاد الشعر بين يديه([4]) .
- الوزير غرس الدين الجركسي (813-873 هجرية) ، وهو خليل بن شاهين الذي شارفت مؤلفاته الثلاثين ، ومن مصنفاته "الواهب في اختلاف المذاهب" ، وهو مرتب على أبواب الفقه، و"الكوكب المنير في أصول التعبير" ، و"المنيف في الإنشاء الشريف" ، و"الاستشارات في علم العبارات" ، و"الدرة المضية في السيرة المرضية" ، و"زبدة كشف الممالك" ، و"موكب السلطان وملابسه" ، و"وصف الخليفة والقضاة" ، وقد خمس البردة ، وله ديوان شعر في عدة مجلدات([5]) .
- الأشرف جان بلاط وهو الثامن عشر من ملوك الجراكسة ، كان مولعا بحب العلم والثناء على العلماء ، وإقامته لمجالس العلم ، وكان يحفظ القرآن الكريم([6]).
- السلطان قانصوه الغوري الذي اعتاد أن يعقد بالقصر السلطاني مجالس علمية مرة أو مرتين أو ثلاثا كل أسبوع ، وكان يدعو إلى هذه المجالس كبار العلماء والأدباء للجدل والبحث ، وكان هو أستاذ هذه المجالس ، حيث كان حظه وافرٌ من العلوم الدينية والعربية كالفقه والتفسير والتوحيد والبلاغة والنحو ، مولعا بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص ، بارعا في الموسيقى ، ومن نبوغه فيها أنه كان صاحب ألحان يتغنى بها ، وكان ذا ملكة يتفهم بها الآداب وتزين له قول الشعر ، وولعه بمطالعة الكتب وعنايته بالعلم والأدب ومشاركته فيهما ، كل ذلك مهد سبيل المبالغة أمام مداحه والمعجبين به([7]).

([1]) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 113/12 .

([2]) بدائع الزهور 2/ 298 .

([3]) بدائع الزهور 326/2 . شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، 1998م ، ص33.

([4]) النجوم الزاهرة 520/6.

([5]) عصر سلاطين المماليك 212/4 .

([6]) بائع الزهور 428/3 .

([7]) بدائع الزهور 89/5 .

وقد كان السلاطين يهتمون بإنشاء المساجد والمدارس وعند افتتاحها يستمعون للدروس ، وقد يتناظر السلطان هو وبعض الأئمة والعلماء في بعض أمور الدين وغيرها ، ومن ذلك المجالس العلمية التي اشتهر بها الأشرف قانصوه الغوري ، حيث كان الغوري شاعرا بحق ، فقد مدحه القاضي شهاب الدين أحمد بن فرفور قاضي دمشق بقصيدة قال فيها :

لـك الملـك بـالفتح المبـين مخلـد لأنـك بالنصـر العزيـز مؤيـد
وأنـت العزيـز الكامِـل الـذي هـو الأشـرف الغـوري وهـو المسـدد

فابتهج السلطان الغوري بقصيدة القاضي ورد عليه بقصيدة من بحرها ورويها في ثلاثة وثلاثين بيتا قال فيها :

أجاد لنا القاضي ابن فرفور أحمد مـديحا بـه أُثنـى عليـه وأحمـد
شـهاب لـدين الله والشـمس بـاهر مناقبـه مشـهورة لـيس تجحـد([1])

- هذا وقد شارك بعض المماليك الجراكسة في نظم الشعر من أمثال طومان باي الذي كان آخر السلاطين الجراكسة ، حيث نجد له قصيدة طويلة نظمها في أربعة وتسعين بيتا ، يقول في أولها :

دمـوع العـين فاضـت مـن مـآقي وقلبـي ذاب مـن كثـر احتـراق
فـلا نـار طفاهـا دمـع عينـي ولا دمعـي يغـيض مـن اختنـاق
وبـي أسـف علـى أسـف وحـزن وهـمٌّ فـوق هـم واشـتياق([2])

وبهذا العرض الموجز لنتاجات عصر المماليك الجراكسة الثقافية والفكرية ، أعتقد أن عصر المماليك الجراكسة لم يكن عصر خمول أو خمود كما زعم بعض الغافلين عن دور ذلك العصر ونتاجاته الأدبية ، كما لم يكن عصر محاكاة وتقليد ، وإنما كان عصر علم وفن وأدب عصراً حافلٌ بالعلماء والفقهاء والقادة الأفذاذ ، عصرٌ ازدهرت فيه الحركة العلمية ازدهاراً واسعاً فغدت البلاد محوراً لنشاط علمي متعدد الأطراف ، خاصة بعدما أصاب أنحاء العالم الإسلامي في العراق وفي الأندلس على أيدي الصليبيين من خراب ومحن ودمار ، فضلاً عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدي المغول .

([1]) الأشرف قانصوه الغوري : مجالس السلطان الغوري ، تحقيق : عبدالوهاب عزام، ط1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1941م ، ص 175– 176 .

([2]) ابن زنبل الرمال ، آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط2 ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998م ، ص 77 ، 81 .

الفصل الأول

رثاء رجال الدولة

- رثاء السلاطين والوزراء والأمراء والقادة
- رثاء القضاة والفقهاء والعلماء والأدباء

الموت هو نهاية كل كائن حيّ على وجه البسيطة ، وقد عرفه الإنسان قدراً لا انفكاك منه منذ بداية الخليقة ، وذاق معه طعم القهر والألم .. القهر لأنه يقف أمامه عاجزاً لا حول له ولا قوة ؛ والألم لأنه يفرّق بين الخليل وخليله ، ولأنه يحول بين الإنسان ومن يحبه أو يحترمه .

إن الإحساس بالألم والتوجع لفقد عزيز أو صديق ، استدعى وجود الرثاء ، الذي قد يكون أقدم وسائل التعبير عن مكانة الفقيد والإحساس بالقهر والألم لفقده ، كما أنه قد يحمل معاني الاستسلام لقضاء الله وقدره ، والتدبر في حقيقة الحياة وفلسفة الموت . ليس ذلك فحسب.. بل إن مجرد التفكير في الموت ودنو الأجل يثير شتى الأحاسيس ومنها أحاسيس الحزن والألم ، ويحفز على تدبر حقيقة الحياة ، أو الشفقة وبكاء الإنسان نفسه .

وبناء عليه فإن الرثاء وجد مع وجود الموت ، أو التفكير فيه ، فأينما وجد موت وجد رثاء ، وليس أدل على ذلك من رثاء رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لابنه إبراهيم الذي وافته المنية فرثاه النبي صلى الله عليه وسلم متألما حزينا عليه بقوله : "والله إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون" ، وفي الأدب العربي اشتهر رثاء الخنساء في الجاهلية لأخيها صخر ... وبذلك فالرثاء فن من الفنون القديمة وهو من أبواب الشعر الغنائي وهو أصدقها وأكثرها تعبيرا عن المشاعر الإنسانية ، لأنه يرتبط بالموت .

ولكن ماذا نقصد بكلمة رثاء ...

الرثاء لغة :

رثا فلان فلانا ، يرثيه رثيا ومرثية ، إذا بكاه بعد موته ... فإن مدحه بعد موته قيل : رثاه ، يرثيه ، ترثيه : مدحته بعد الموت وبكيته ، ورثوت الميت أيضا إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعرا([1]) .

الرثاء اصطلاحا :

مدح الميت بذكر صفاته ومناقبه الحسنة ، أو هو تعداد مناقب الميت وإظهار التفجع والتلهف عليه واستعظام المصيبة فيه ...([2]).

أما في الحديث عن أنواع شعر الرثاء ، فقد قسم شوقي ضيف شعر الرثاء على أساس قوة العاطفة وفتورها إلى ثلاثة أقسام هي :

1- **الندب** : وهو بكاء ذوي القربى ، ويكون فيه التفجع والألم والدموع الغزيرة ، لذا فهو أقوى أنواع الرثاء عاطفة ، لأن الشاعر يبكي فيه نفسه ، أو جزءٌ من كيانه كما فعلت الخنساء عندما فقدت أخاها صخرا .

2- **التأبين** : وهو أقرب لذكر مناقب المتوفى منه إلى الحزن العميق ، حيث تتراوح فيه العاطفة بين الفتور والمجاملة التي يعوزها الصدق ، حيث يظهر لنا هذا النوع جليا في رثاء الشعراء لذوي الجاه والسلطة .

3- **العزاء** : ويلجأ فيه الشاعر عادة إلى استكناه حقيقة الموت والحياة ، وقد ينتهي به هذا التأمل إلى معان فلسفية عميقة ، بحيث تخف فيه شدة الصدمة ويعود الشاعر إلى نفسه يفكر في الكون وخالقه([3]) .

هذا ومن خلال البحث سوف تمر بنا الأنواع الثلاثة السابقة ، من خلال نماذج الشعر الرثائية المختلفة التي سنتناولها بالتحليل والوقوف على معانيها المتنوعة .

([1]) جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الأفريقي : لسان العرب ، تحقيق : عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، المجلد الثالث ، باب الراء – فصل الثاء ، ص 1582 .

([2]) أحمد الهاشمي : جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ط 27 ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ص343.

([3]) ينظر : نبيل خالد أبو علي : محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ، مطبعة الوحدة ، رام الله 1993م ، ص32 . والأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني ، ط1 ، دار المقداد للطباعة ، غزة 2008م، ص153 .

أولاً : رثاء السلاطين والوزراء والأمراء والقادة :

وهو الرثاء الذي يدخل معظمه في باب التأبين ، حيث بكى شعراء هذا العصر سلاطينهم ووزرائهم وقادتهم وأمرائهم ، ونظموا فيهم القصائد المشجية ، معبرين بذلك عن معاني الحزن والأسى لفقدهم ، واصفين الفجوة التي تركها هؤلاء السلاطين والقادة ، معبرين بأشعارهم عن علو مكانتهم ، كيف لا وهم من سطروا المجد في صفحات تاريخ الدولة الجركسية ... لذا فقد مضى هؤلاء السلاطين والقادة والأمراء نجوما لامعة في أفق الذاكرة ، وبفقدهم انتظمت القصائد المشجية حزنا عليهم ، ورصفت المعاني في قصائد تنشر أمجادهم على مر العصور والأزمان ، وتبعث مناقبهم وصفاتهم مثلا سائرا بين الناس ، وللوقوف على مآثر هؤلاء القادة نذكر بداية رثاء السلاطين .

رثاء السلاطين :

إن أول ما يصادفنا في هذا الباب رثاء الشيخ شمس الدين الزركشي للملك الظاهر برقوق الذي توفي سنة 801 للهجرة ، حيث رثاه بقصيدة طويلة ذكر فيها مكانته الغالية في أعماق النفس ، واصفا شدة حزنه وتأسفه على فقد مثل هذا السلطان ، إذ يقول([1]) :

في باطني للملك الظاهري ... حزن سرى منيّ في ساير
فبعده يا عين لا تبخلي ... بمدمع كالطيب الماطر
وأنت يا سيدي لا تنفصل ... طول المدا ما عشت عن ناظري
لا ترضى إلا عليه البكا ... فابكوا بدمع هامل هامر

يخاطب الشاعر شمس الدين الزركشي عينه التي ذرفت الدموع ألا تبخل في سكب الدموع بعد فقد السلطان برقوق ، متمنيا ألا تغيب صورته عن ناظره أبد الدهر . ثم يوجه حديثه للناس بأن يتخذوا البكاء عليه سنة كلما ذكروه ، وينادي كبده ومهجته بأن يذوبا على فقده من لوعة الحزن ثم بعد ذلك يصور الزركشي في مرثيته كيف أصبح عرش الملك يتيما بعد مفارقة السلطان برقوق للحياة وكيف أن أعين الناظر لذلك تفيض دموعا غزيرة ، إذ يقول([2]) :

واتخذوا الندب لكم سنة ... عليه من باد ومن حاضر
فإنه كان لكل أمر ... في نفسه كالعين والناظر
يا كبدي الحرى ويا مهجتي ... ذوبا عليه دهري الداهر

([1]) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، 534/1- 535 .
([2]) السابق 534/1- 535 .

هيهـــات لا مـــدمع مـــن بعـــده يخبـــا ولا يجنـــي علـــي نـــاظري
قـد كـان مثـل الغيـث يـوم العطـا وفـــي الوغـــا كالأســـد الضـــائر
فبعـــده الملـــك يتيمـــا غـــدا تبكـــي عليـــه أعـــين النـــاظر

ويمضي الزركشي في مرثيته معددا صفات هذا السلطان الذي تمتع بها خلال حكمه من عدل وجود وما إلى ذلك من الصفات التي أصبح الناس يرددونها كالمثل السائر المشهور بينهم ، ثم يذكر تأييد هذا السلطان للحق ووقوفه بجانب المظلومين ونصرتهم ، ومحاربته للباطل وأعوانه ، فيقول([1]) :

وعدلـــه فـــي مصـــر مـــع جـــوده قـــد أصـــبحا كالمثـــل الســـائر
وســـاس ملـــك الله ســـوس امـــرئ علـــى مراضـــي ربـــه قـــادر
جـــائرٌ مكســـور بإحســـانه وكاســـر الجبـــار والفـــاجر
ورافـــع كـــل فتـــى مـــؤمن وخـــافض المشـــرك والكـــافر
وناصـــب للحـــق أعلامـــه وجـــازم الباطـــل بالبـــاتر

ثم يصف الزركشي خاتمة المؤمنين وصفاتهم الحسنة التي تنطبق تماما على شخصية السلطان وصفاته التي امتاز بها ، متحدثا بذلك عن النعم والملذات التي أعدها الله عز وجل لعباده المؤمنين ، من اكتساء السندس والأثواب المزركشة بالجواهر الفاخرة ، ولقاء الحور الحسان وشرب كاسات الخمر التي لم يعصرها بشري ، وإنما هي من صنع الله البديع ، هذا إضافة إلى الثمار الطيبة باختلاف أنواعها ومذاقها ، يقول([2]) :

قضـــا فـــي الإســـلام نحبـــا وقـــد مضـــى لعـــيش رغـــد ناضـــر
فـــي جنـــة الفـــردوس دار البقـــا دار النســـيم الـــدائم الـــوافر
ليكتســـي مـــن ســـندس أخضـــر وأثـــوابِ خلـــد لـــيس بالقاصـــر
ويلـــبس التيجـــان مـــن عســـجد مكلـــل بـــالجوهر الفـــاخر
ويـــنكح الحـــور الحســـان التـــي قـــد كونتهـــا قـــدرة القـــادر
ويجتلـــى كاســـات خمـــر حلـــت مـــا صـــبها والله مـــن عاصـــر
ويجتنـــي فيهـــا ثمـــارا زهـــت مـــن كـــل نـــوع طيـــب طـــاهر

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 535/1 .
([2]) السابق 535/1 .

كما ويقتبس الزركشي بعض ألفاظ مرثيته من القرآن الكريم ، يتضح ذلك في مثل قوله([1]) :

في مقعد الصدق لذا جنة عند مليك غافر قادر

لو لم يكن من صالحي خلقه ما ولى الملك من القادر

فهذا القول يذكرنا بقوله عز وجل : " فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ"([2]) .

ثم يتحدث الزركشي عن حياة السلطان برقوق وكيف أنه عاش سعيدا في دنياه ، ومضى للآخرة شهيدا ، فكان بذلك ذا هناء وافر ، ثم يتوجه الزركشي لله عز وجل بالدعاء للسلطان بأن يسقي الله قبره بمطر غزير من سحب رضوانه ، إذ يقول([3]) :

وعاش في الدنيا سعيدا وقد مضى شهيدا ذا هناء وافر

سقى ثراه صيب هامل من سحب الرضوان في باكر

ويمضي الزركشي متحدثا في مرثيته عن نجل السلطان برقوق ، ألا وهو الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج الذي خلف والده في عرش السلطنة ، ويصفه بأنه مثل والده في تأييده للإسلام ونصرة الضعفاء والوقوف بجانب الحق وما إلى ذلك ، إذ يقول وقد اختتم قصيدته الشجية بالصلاة على خير البرية([4]) :

وأيد الإسلام من بعده بنجله ذا الملك الناصر

لا زال في سلطانه ظاهرا إذ كان نجل الملك الظاهر

فقد أتانا فرجا عاجلا بكل خير عاجل حاضر

وقد رأينا ملكا ناصرا لدين حق دائما ناصر

فدام فينا أبدا باقيا ما انشق ضوء من دجى عاكر

وأيد الله بتأييده عساكر الإسلام عن آخر

ثم المختار خير الورى صلاة رب راحم غافر

وآله طرا وأصحابه أهل التقى والعمل الطاهر

وبعد أن توفي السلطان برقوق ادعى بعض المتربصين حلول العسر والشدة بالبلاد ، لذلك رأينا بعض الشعراء يفندون هذا الإدعاء ، من ذلك – مثلا – قول الشاعر شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدي الذي يقول([5]) :

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 535/1 .

([2]) القمر ٥٥ .

([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 535/1.

([4]) السابق 535/1.

([5]) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك 449/5 .

مضـى الظـاهر السلطان أكرم مالـك إلـى ربـه يرقـى إلـى الخلـد فـي الـدرج
وقـــالوا ســـتأتي شـــدة بعـــد موتـــه فأكـذبهم ربـي ومـا جـاء سـوى فـرج

لقد مال الشاعر شهاب الدين إلى التورية في الرد على أولئك المتربصين ، فالسلطان فرج نجل الظاهر برقوق ، والفرج جاء بخلاف ما تمنوا ، فكأنه يريد أن يقول للسلطان نصيب من اسمه ، فبتوليه عرش السلطنة بعد أبيه ظلت أحوال البلاد منفرجة .

ومن الشعراء من لم يتوقف عند البكاء وذكر مناقب الميت فحسب ، وإنما خاطب القبر بألا يظلم عليه ، ويهنئ القبر ويغبطه على احتوائه لهذا الميت ، من ذلك قول محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري في رثائه للملك الناصر أبا السعادات محمد ابن الأشرف قايتباي ، الذي توفي سنة 904 هجرية([1]):

يـــا قبـــر لا تظلـــم عليـــه فطالمـــا جلـــى بطلعتـــه دجـــى الإظـــلام
طـــوبى لقبـــر قـــد حـــواه وكيـــف لا يحكـــي الســـماء وفيـــه بـــدر تمـــام

ومن الشعراء من يخاطب خلانه متألما لفراق من فقد ، متحسرا بضياع من بعده ، كما ويقسم مكررا لفظ الجلالة ، مستخدما إننا التي تفيد التوكيد ليدلل على شدة لوعته ووافر حزنه على فراق أحد الملوك ، من ذلك رثاء الشاعر الديبع لملك من ملوك اليمن ، وهو عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر الذي توفي سنة 923 هجرية ، يقول([2]):

أخـلاي ضـاع الـدين مـن بعـد عـامر وبعـد أخيـه أعـدل النـاس فـي النـاس
فمـــــذ فقـــــدا والله والله إننـــــا من الأمن والإيناس في غاية الياس

ومن السلاطين من كان قليل الحظ ، من هؤلاء الأشرف جان بلاط ، الذي ما إن تولى زمام الأمور وصعد عرش المملكة حتى تخطفه الموت ، وذلك في سنة 906 هجرية ، وكان له من العمر زيادة على الأربعين سنة ، وقد رثاه محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري بقوله([3]):

جـــان بـــلاط بـــدا لـــه طـــالع الـــنحس أطـــرده
نجمـــــه لاح مخبـــــرا بعكـــــوس مؤبـــــده
عنـــد مـــا ظـــن أنـــه نـــال بالملـــك مقصـــده
جـــاءه المـــوت عـــاجلا فـــي بـــروج مشـــيده

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 403/3 .
([2]) محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 216/1 .
([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 472/3 .

رثاء الوزراء :

ضمن بعض الشعراء من مرثيته تأريخا لوفاة المرثي ، ومن ذلك ما نجده عند عويس العالية الذي يقول في رثائه للمقر البدر بن فضل الله كاتب السر الشريف وأخيه حمزة اللذين وافتهم المنية سنة 797 هجرية([1]) :

قضى البدر بن فضل الله نحبا ... ومات أخوه حمزة بعد شهر
فلا تعجب لذي الأجلين يوما ... فحمزة مات حقا بعد بدر

ولمّا توفي الزيني أبو بكر بن مزهر كاتب السر بالديار المصرية سنة 893 للهجرة رثاه محمد بن إياس الحنفي جاعلاً النسوة يبكين دماً عليه ، ويعفرن وجوههن بالتراب ، وجعل أقلام الدواة تلبس السواد وتقسم أن تتوقف عن الكتابة حزنا عليه ، يقول([2]):

صارت أراملـه كمثل أراملي ... تبكي بأعينها دما وتترب
وكذا الدواة تسودت أقلامها ... حزنا عليه وأقسمت لا تكتب

أما محمد بن أحمد بن إياس الحنفي فيظن أن الدهر سيسالم السلطان ، وأنه سيستقصي معاني المدح في الثناء عليه ونشر محاسنه ، ولكن الموت يحول بينهما ، ويتحول مدحه رثاءً حيث يتوفى المقر الناصري محمد ولد السلطان في سنة 910 هجرية ، وله من العمر ثلاث عشرة سنة – كان متولي شادية الشراب خاناه – يقول([3]) :

لهفي على من كان ظني أنني ... أفنى المدائح في الثناء قوافيا
فمضى وأثكلني فها أنا ناظم ... تلك المعاني الغر فيه مراثيا

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 472/1 . وانظر أيضاً : ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة 1969م ، 498/1 . = النجوم الزاهرة 109/12 .

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 255/3 .

([3]) السابق 78/4 .

رثاء الأمراء :

لم يختلف رثاء الأمراء عن رثاء الوزراء والسلاطين ، فكما رثا الشعراء سلاطينهم ووزرائهم رثوا كذلك أمرائهم بأحاسيس صادقة ، وعبروا عن حزنهم وما يعانون من هذا المصاب الجلل ، من ذلك مثلا ما نجده في رثاء الشهاب المنصوري لأمير مكة الشريف بركات الذي توفي سنة 859 هجرية الذي يقول فيه([1]):

قالوا قضى بركات قلت فحق لي ... أن اتبع العبرات بالزفرات
يا ترحة الأحياء عند فراقه ... وبقربه يا فرحة الأموات
والكعبة الغراء قالت قد غدا ... ليس الحداد عليه من عاداتي
فانظر إلى آثاره في مكة ... فرحابها لم تخل من بركات

لقد عبّر الشاعر عن موقفه وقت سماعه لخبر وفاة الأمير بركات ، واصفا حال الأحياء وقت فراقه من حزن وتألم وتحسر ، كما وصف هناء وسعادة الأموات لقربه منهم ، إذ أصبح جارا لهم عند وفاته ، ثم ينقلنا إلى صورة جميلة يصف بها موقف الكعبة التي لا تعد الحداد عليه من طباعها ، ذلك لأن الناظر في مكة يجد آثار بركاته في رحابها .

أما محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري فيصف حاله حين سماعه نبأ وفاة الأمير تاني بك فرا – توفي سنة 905 هجرية – ويبين وقع النبأ على الناس لفقد هذا الأمير الذي كان أميرا جليلا رئيسا حشما لين الجانب كثير الخير ، والذي بات الحزن عليه متجددا بين الناس كمثل الأمواج المتلاطمة ، ثم يشفق على قلبه من تجرع خبر وفاة الأمير ، ويبين كيف جرت دموعه كالدماء حزنا عليه ، ثم يسترسل في ذكر صفات الأمير من صرامة وشجاعة ، وقوته في التصدي للأعداء وما إلى ذلك ، مستنكرا أن يكون الأعداء قد قتلوه فوق ظهر جواده ، واصفا مدى الافتراء والظلم الذي ارتكبه قاتله ، ثم في نهاية مرثيته يدعو ابن إياس لهذا الأمير ولجميع أمراء عصره بأن يجعل الله عزوجل قبورهم روضة من رياض الجنة ، وأن يتغمدهم برحمته ويجعل مستقرهم دار الجنان ، إذ يقول([2]) :

من طالع التاريخ يوما أوقرا ... تروي صروف الدهر عن تنبك فرا
شاع الحديث بخنقه فلأجل ذا ... خنقت بعبرتها الورى مستعبرا
قد خانه ريب الزمان بفعله ... والدهر إن يصفو يعود مكدرا

([1]) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، نظم العقيان في أعيان الأعيان ، المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك 1927م ، والمكتبة العلمية ، بيروت ، ص100.

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 3/430–431 .

قد كنت أحذر من وقوع حمامه والآن دمعي كالدماء وقد جرى
لهفي عليه من أمير صارم في يوم حرب للعداة مدمرا
لم يقتلوه فوق ظهر جواده لكن قاتله تعدى وافترى
يا لهف قلبي قد تجرع فقده وتجددت أحزانه بين الورى
يا لهف قلبي كم أمير كان في عز وجاه فانطوى تحت الثرى
قد غادر الأمراء جور زمانهم فالحكم للرحمن فيما قدرا
يا رب فاجعل قبرهم في روضة واجعل برحمتك الجنان لهم قرا

رثاء القادة :

وكما اشتهر السلاطين والأمراء والوزراء بين الناس اشتهر القادة ، وعرف الناس مآثرهم في الحرب والسلم ، وغالباً ما ارتبط ذكر القادة بالحروب ومآثرها كالفتوح والانتصارات ، أو مساوئها كالهزائم وموت الأبطال ، وقد ارتبط الموت بالرثاء ، وألقى الشعراء لومهم على الدهر من ذلك ما نجده مثلاً عند الأديب شهاب الدين أحمد الأوحدي ، الذي خاطب الدهر وقد اتهمه بالتوحش والتعمد في إفناء الأحبة ، وذلك في رثائه للفارس الأعرج حاجب الحجاب بالديار المصرية وكان من الشجعان ، وقد توفي سنة 802 هجرية ، إذ يقول فيه([1]):

يا دهر كم تفني الكرام عامدا هل أنت سبع للورى ممارس؟
أيتمش رب العلا صرعته ورحت للندب الهمام فارس

ومثله فعل محمد بن أحمد بن إياس ، الذي خاطب الدهر ملقياً عليه كامل المسؤولية واللوم في جعله الناس يتامى بعد فقد الأمير المقدام الأتابكي تمراز ، الذي توفي سنة 902 هجرية. ، فقال يرثيه([2]):

أرغمت يا دهر أنوف الورى بقتل تمراز ويتم العباد
أتابك العسكر ذا رأفة بالجود قد شاع لأقصى البلاد
أخطأت يا قاتله كيف قد قتلت من يقمع أهل العناد
مصيبة جلت فمن أجلها قد أطلقت في كل قلب زناد
لكن له في قتله أسوة إلى الحسين بن علي الجواد
من أودعوه الرمس ما أنصفوا بل كان يحيى في صميم الفؤاد
فالله يأجره على ما جرى من قتله بالعفو يوم المعاد

([1]) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 169/12.

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 374/3 .

يعدد ابن إياس مناقب الأمير تمراز التي وصف بها في حياته من الرأفة والجود الذي عم البلاد ، ثم يوجه خطابه للقاتل الذي ارتكب خطأً فادحاً بقتله ، ثم يصف حادثة القتل بالمصيبة التي أصابت قلوب محبيه .

ومن الشعراء من نجده يخاطب الموت موجها نداءه إليه ، كما هو الحال عند الزين شعبان بن محمد الآثاري في رثائه لصدقة بن محمد الزين الأسعردي المصري الذي توفي سنة 809 هجرية ، وكان يعرف بالاستادار لأنه كان استادارا لأحد خواص الظاهر برقوق ، وقد رثاه بهذه الأبيات التي كتبت أيضاً على قبره([1]):

مذ غاب عني جمال منك يا أملي عدمت عيش الهنا والأنس والشفقة
يا موت تطلب مني الروح دونكها لأنني كل مالي في الهوى صدقه

فكأن الشاعر هنا يشبه الأسعردي بالشمس ويشبه نفسه بالقمر ، حيث في غياب هذه الشمس التي تمد القمر بجمال ونور يضيء في عتمة الليل ينطفئ هذا الضوء ويغيب جماله ، ثم بعد ذلك يعبر الشاعر عن مدى حزنه لفقده مثل هذا القائد الذي طالما أمده بالأمل فيصف الحياة بدونه بأنها بدون طعم ذلك لأنه فقد طيب العيش بفقدانه ، كما فقد معاني الأنس والشفقة ، ثم بعد ذلك يوجه الشاعر خطابه للموت متعجبا لأمره وقد طلب منه أغلى ما يملك .

ومن الشعراء من يخاطب عينه وقد أمرها بأن تذرف الدموع بغزارة وتكثر في العويل والنواح على من قد استوحشت مصر لفقده ، ومن ذلك ما نجده عند محمد بن أحمد بن إياس الذي يقول في رثائه للأتابكي قرقماش بن ولي الدين أتابك العساكر بالديار المصرية ، التي كانت وفاته سنة 916 هجرية([2]):

يا عين جودي بفيض دمع وأكثري في البكا انتحابك
على قُرقِماشِ قد رزينا واستوحشت مصر للأتابك

([1]) شمس الدين السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، طبعة دار الجيل ، بيروت – لبنان ، 3/ 317.

([2]) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري : المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة مطابع الشعب بالقاهرة ، ص808.

ثانياً : رثاء القضاة والفقهاء والعلماء والأدباء :

ذخر هذا العصر بالعلماء الأفذاذ ، والأدباء المشهود لهم بغزارة الإنتاج والموسوعات الثقافية الضخمة ، كما ظهر دور القضاة والفقهاء بشكل ملحوظ في الساحة الاجتماعية للبلاد من خلال ما أرسوه من دعائم وأسس تحقق العدل والمساواة في المجتمع ، وتجعله مجتمعا متماسكا متعاونا يعطف فيه القوي على الضعيف ، ويتصدق فيه الغني على الفقير ، وبذلك اكتسبوا حب واحترام الناس ، وتمتعوا بمكانة مرموقة في المجتمع ، كيف لا وهم من باتوا أقمارا تنير للناس طريق الهدى والرشاد وتجنبهم طرق الضلال ، ولهذا كان فقدهم يمثل للأمة الألم والمعاناة ، إذ شعروا بحجم الفراغ الذي خلفه أولئك القضاة والعلماء والفقهاء والأدباء ، هذه المعاناة التي ترجمها أصحابها إلى لغة حزن منطوقة تهتز لسماعها القلوب والأبدان ، حيث انطلقت أقلام الشعراء تنظم رثاء شجيا بحق من فقدتهم الأنظار وبقيت ذكراهم منقوشة في ذاكرة الأمم والأقطار ...

وفي هذا المبحث أول ما نتناوله رثاء القضاة والفقهاء ، هذا الرثاء الذي من خلاله ستتضح من خلاله مكانتهم وشدة حزن المجتمع عليهم .

رثاء القضاة والفقهاء :

امتاز قضاة وفقهاء هذا العصر بسعة العلم وطول البحث والتنقيب في أمور الدين وأحوال الدنيا بما يصب في مصلحة الرعية والبلاد ، ويجعل قوام الدولة قائما على ميزان العدل والرشاد ، حيث مضى قضاة وفقهاء هذا العصر متخذين من الحق سبيلا ، واضعين نصب أعينهم مخافة الله عز وجل ، وقد أخلصوا في عملهم واجتهدوا في التنقيب عما يدفع الفتن عن البلاد ، ويدحر الظلم والفساد ، متخذين من كتاب الله عز وجل منهجا يحتكمون إليه في مختلف المسائل والتشريعات الفقهية والقضائية ، وبذلك فقد شهد هذا العصر قضاةً وفقهاءً يشار إليهم بالبنان ، وتهتز لفقدهم القلوب والأبدان ، وتعجز الكلمات عن وصفهم ، وتدمع العيون بذكرهم ، ومن ذلك مثلا ما نجده عند محب الدين أبو الفضل بن الشحنة في رثائه للقاضي علاء الدين علي ابن خطيب الناصرية الذي توفي سنة 843 هجرية ، إذ يقول فيه([1]) :

ناحت على سلطانها العلماء ... وبكت لفقد علائها الشهباء

وانهد ركن أي ركن شامخ ... للمسلمين ويتم الفقهاء

([1]) محمد راغب الطباخ الحلبي : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، صححه وعلق عليه محمد كمال ، الطبعة الثانية ، دار القلم العربي بحلب ، 1989م ، 5/223-224 .

يصف ابن الشحنة هول المصاب وشدة تأثيره على الناس ، إذ أصبح العلماء ينوحونه ، كما تصدعت الشهباء بكاءً عليه ، فهو الركن الشامخ للمسلمين الذي تهدّم ، ومن بعده أصبح الفقهاء أيتاماً ، وكل ذلك يبين لنا مكانة ومنزلة هذا القاضي المرموقة ، وأثره في جميع نواحي الحياة العلمية والعملية .

ثم يبين لنا ابن الشحنة ندرة وجود أمثال هذا القاضي العلامة الذي ترك له بصمة في كل ميدان ، سواء في مجال الإفتاء أو الفقه ، أو دار القضاء وفي شتى أنواع العلوم إذ يقول([1]):

من للمدارس بعده علامة ... من للفتاوى إن بغي إفتاء
جل المصاب به وعم فموته ... قسما مصاب ليس عنه عزاء
الله أكبر يا لها من ثلمة ... في دين أحمد ما لها إرفاء
يا شيخ الإسلام ارتحلت برغمنا ... فانسرَّ قوم ما هم أكفاء

فابن الشحنة ينفي وجود علامة بعد هذا العلامة ، كما وينفي وجود مفتيا أجدر منه في تناول مسائل الإفتاء ، ثم نجد ابن الشحنة يقسم بأن هذه المصيبة التي عظمت بموته لا يضاهيها أي عزاء ، ثم بعد ذلك يوجه ابن الشحنة خطابه إلى هذا القاضي الجليل معاتباً إياه برحيله عنهم ، هذا الرحيل الذي شمت به أعداؤه وسروا له متناسين أن الموت آتيهم لن يفر منه أحد .

ثم في ختام قصيدته لا يجد ابن الشحنة جدوى من نحيبه وبكائه ، لذلك يلجأ إلى مقدر الأقدار رافعا أكف الضراعة داعيا المولى عز وجل أن يسقي قبر وتراب القاضي ابن الخطيب بوابل كثيف من أبواب رحمته ، ثم يمتد دعائه ليتسع ويشمل المسلمين الذين صبروا في مصابهم بأن يثيبهم الله عز وجل في هذا اليوم الذي فيه حقاً ماتت الآباء ، وذلك في قوله([2]):

يا ابن الخطيب سقى ثراك بوابل ... من رحمة لا تنقضي سحاء
وأثاب فيك المسلمين مصابهم ... فاليوم حقا ماتت الآباء

كذلك رثى عيسى بن حجاج القاضي محمد بن يوسف الذي توفي سنة 793 هجرية ، متلهفا عليه ، مشيدا بفضله العلمي ، مبينا مكانته في سلم القضاء ، إذ يقول([3]) :

لهفي على قاضي القضاة محمد ... إلف العلوم الفارس الركراكي
قد كان رأسا في القضا فلأجل ذا ... حزنت عليه عصابة الأتراك

([1]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 223/5-224 .

([2]) السابق 224/5 .

([3]) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر 430/1 .

هذا ومن الشعراء من وصف هول فراق الفقيد بالبلاء الذي سببه الزمان ، ومن ذلك ما نجده في رثاء بعض الشعراء للقاضي أحمد بن نصر الله بن محمد بن عمر بن أحمد قاضي الحنابلة محب الدين أبو يوسف التستري الأصل ثم البغدادي ، نزيل القاهرة ، وكانت وفاته بعلة القولنج سنة 844 هجرية ، يقول([1]) :

بلانـــي الزمـــان ولا ذنـــب لـــي بلـــــى إن بلـــــواه للأنبـــــل
وأعظـــم مـــا ســـاءني صـــرفه وفـــاة أبـــي يوســـف الحنبلـــي
ســـراج العلـــوم ولكـــن خبـــا وثـــوب الجمـــال ولكـــن بلـــى

ومن الشعراء من يبرر فقد المرثي باكتمال دورة حياته ، تماماً مثلما تكتمل دورة الشمس بالغروب والغياب عن الأنظار ، من ذلك ما نجده عند الشرف يحيى بن العطار في مخاطبته للقاياتي شمس الدين محمد بن علي ، قاضي القضاة شيخ علامة الديار المصرية ، المتوفى سنة 850 هجرية ، وقد أثنى عليه باستحقاقه السيرة العطرة والذكر الجميل ، مشبها إياه بالشمس التي تشرق فتنشر شعاع علمها للناس ، ثم بعد ذلك تغيب ، يقول([2]) :

حقيـــق أنـــت بالـــذكر الجميـــل لبعـــدك فـــي زمانـــك عـــن مثيـــل
طلعـــت علـــى البريـــة شـــمس علـــم فـــلا عجـــب مصـــيرك للأفـــول

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن بعض الشعراء قد ضمن مرثيته الكثير من الحكم التي تذكر بالموت وبالآخرة ، هذه الحكم التي يستحيل أن يطعن فيها طاعن ، فهي الحقيقة المرة التي تنتظر كل إنسان ولا بد له من مواجهتها عاجلا أو آجلا ، فلكل أجل كتاب ، ومن ذلك ما نجده عند الشهاب الحجازي في رثائه لشيخ الإسلام قاضي القضاة ابن حجر العسقلاني الذي توفي في ثامن عشر من ذي الحجة سنة 852 هجرية ، إذ يقول في رثائه([3]) :

كـــل البريـــة للمنيـــة صـــائرة وقفـــوا لهـــا شـــيئا فشـــيئا ســـائرة
والـنفس إن رضـيت بـذا ربحـت وإن لـم تـرض كانـت عنـد ذلـك خاسـرة
وأنـــا الـــذي راض بأحكـــام مضـــت عـــن ربنـــا البـــر المهـــيمن صـــادرة
لكـن سـئمت العـيش مـن بعـد الـذي قـــد خلـــف الأفكـــار منـــا حـــائرة

ثم بعد ذلك يشيد الشهاب الحجازي بمكانة القاضي ابن حجر وفضله ، فهو وحيد عصره الذي

([1]) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 238/2.

([2]) السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان ، ص154 .

([3]) القصيدة طويلة ، للاستزادة انظر : ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 269/2-270 . والسيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ص 215-216 .

ندر وجود أمثاله ، والذي بموته بارت علوم الكيمياء ، وخربت الدنيا ، إذ يقول([1]) :

قاضي القضاة العسقلاني الذي ... قد كان أوحد عصره والنادرة
لا بدع إن كانت علوم الكيميا ... من بعد ذا الحجر المكرم بائرة
قد خلف الدنيا خرابا بعده ... لكنما الأخرى عليه عامرة
فكأنه في اللحد منه ذخيرة ... أعظم بها درر العلوم الفاخرة
قهرتني الأيام فيه فليتني ... في مصر مت ولا رأيت القاهرة
من شاء بعدك فليمت أنت الذي ... كانت عليك النفس قدما حاذرة

ثم لا يجد الحجازي سبيلا للتعبير عما يختلج أعماقه من أحزان سوى بتلهفه على مثل هذا القاضي ، كما وتلهف على الأملاك التي تعطلت بعده وعلى علم العروض والنحو أيضا ، ثم يوجه تلهفه على تقصيره بعدم ملئه لجميع النواحي بالنواح لفقد هذا القاضي ، يقول([2]) :

لهفي عليه عالم بوفاته ... درست دروس والمدارس دائرة
لهفي على الأملاك عطل بعده ... ومعاهد الأسماع إذ هي شاغرة
لهفي عليه حافظ العصر الذي ... قد كان ممدودا لكل مناظرة
لهفي على علم العروض تقطعت ... أسبابه بفواصل متغايرة
لهفي على التقصير مني حيث لم ... أملا النواحي بالنواح مبادرة
لهفي على النحو الذي سهله ... يغني اللبيب يساعد المذاكرة

وفي رثائه أيضا يقول الشيخ شهاب الدين المنصوري أنه بعد فقد هذا القاضي الجليل أصبح مشتت الفكر وغدا غير قادر على التمييز ، يقول([3]):

بكاك العلم حتى النحو أضحى ... مع التصريف بعدك في جدال
وقد أضحى البديع بلا بيان ... وقد سلفت معانيه الغوالي
وقد درست دروس العلم حزنا ... وقد ضل الجواب عن السؤال
تنكرت المعارف في عياني ... وتمييزي غدا في سوء حال

وفي قصيدة أخرى يقول المنصوري في رثاء ابن حجر([4]) :

قد بكت السحب على ... قاضي القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذي ... كان مشيدا من حجر

([1]) القصيدة طويلة ، للاستزادة انظر : ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 2/269-270 .
([2]) القصيدة طويلة ، للاستزادة انظر : السابق 2/270 .
([3]) ابن إياس الحنفي : المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور 340 .
([4]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 215-216 .

أما ابن دريد فقد رأى أن الموت قد أتلف علما للدين منصوبا بموت القاضي ابن حجر العسقلاني ، إذ يقول([1]) :

إن المنيـــة لـــم تتلـــف بهـــا رجـــلا ... بـــل أتلفـــت علمـــا للـــدين منصـــوبا
كـــان الزمـــان بـــه تصـــفو مشـــاربه ... والآن أصـــبح بالتكـــدير مقطوبـــا
كـــلاً وأيامـــه الغـــر التـــي جُعلـــت ... للعلـــم نـــورا وللتقـــوى محاريبـــا

ويرثي الشيخ محي الدين الكافيجي ، ويبين أنه بكى فراق القاضي ابن حجر كل يوم ، وملأ الجفون دموعا حزنا عليه ، إذ يقول([2]) :

بكيـــت علـــى فراقـــك كـــل يـــوم ... وأمليـــت الجفـــان مـــن الجفـــون
ولـــو كـــان البكـــاء بقـــدر شـــوقي ... لمـــلأت العيـــون مـــن العيـــون

هذا ومن الشعراء من استهل مرثيته مذكرا بالحقيقة المرة التي لا بد لكل إنسان من ملاقاتها ، ألا وهي لحظة الموت ، هذه اللحظة التي تنقضي مع إتيانها أوقات النعيم والملذات الدنيوية ، كما تنقضي معها الأيام بلمح البصر ، هذه اللحظة التي تجعل الحليم حيرانا ، وذلك كما فعل الشهاب المنصوري في رثائه لشيخ الإسلام قاضي القضاة سعد الدين سعد الديري الحنفي الذي توفي سنة 867 هجرية ، إذ يقول([3]) :

دع الأيـــام تعجـــب والليـــالي ... فظـــل نعـــيمهن إلـــى زوال
قصـــارى عيشـــهن إلـــى فنـــاء ... وغايـــة أهلهـــن إلـــى انتقـــال
ومـــا عوضـــت مـــن بـــذل وعطـــف ... ســـوى توكيـــد ســـقمي واعـــتلال

ثم بعد ذلك يؤكد المنصوري بأن جرحه لفقد الديري مازال مفتوحا لا ينضب ، هذا الفقد الذي أسهر عيون المنصوري حزنا وألما وشوقا لملاقاة هذا القاضي ، الذي كان كنزا وهاديا السائل لضالته بإجاباته الشافية ، يقول([4]):

ودائـــــي لـــــيس يشـــــفيه دواء ... وجرحـــي لا يـــؤول إلـــى انـــدمال
لفقـــد الســـعد قـــد ســـهرت عيـــوني ... فـــوا أســـفا علـــى طيـــف الخيـــال
بـــه الأيـــام قـــد كانـــت قصـــارا ... فـــويلي مـــن لياليهـــا الطـــوال
وكـــان ذخيرتـــي فيهـــا وكنـــزي ... وكـــان هـــدايتي عنـــد الضـــلال

([1]) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، تحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد ، ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، 1231/3 .

([2]) السابق 1231 .

([3]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 401/2–402 .

([4]) السابق 401/2–402 .

ثم يبين المنصوري أثر فقد هذا القاضي من الناحية العلمية ، حيث بكاه العلم ، وأضحى النحو والصرف بعده في جدال ، كما وأصبح البديع مجردا من البيان ، يقول([1]) :

ودق النـــاس أبـــواب الفتـــاوي وقـد وصـلوا إلـى بـاب الصـيال
بكـاك العلـم حتـى النحـو أضـحى مـع التصـريف بعـدك فـي جـدال
وقـد أضـحى البـديع بـلا بيـان وقـد سـفلت معانيـه العـوالي
بكـت أوراقـه بـيض المواضـي دمـا ويراعـه سـمر العـوالي
وعـين دواتـه عمشـت وآلـت يمينـا لا تـداوى باكتحـال

ثم يتعجب المنصوري مستعظما مصيبة فقد هذا القاضي وقد شبهه بالجوهرة ، وشبه بكائه عليه باللؤلؤ المتناثر ، يقول([2]) :

فـوا عجبـا لجـوهرة عليهـا بكيـت مـن المـدامع بـاللآلي
وقـد عظمـت رزيتنـا فنبـه لهـا عمـرا ونـم جـنح الليـالي
فـلا زالـت ذوو الأقـدار تلقـى مـن الأيـام أنـواع النكـال
وكـم جنـت المنـون علـى كـرام وجنـدلت الكمـي بـلا قتـال

ثم يخاطب المنصوري القبر الذي حواه مهنئا إياه لأنه يضم في باطنه الجميل مع الجمال ، معاتبا إياه بتغييبه لذلك الوجه الذي هو أشهى لناظره من الماء العذب للعطشان ، يقول([3]) :

فيـا قبـرا ثـوى فيـه تهنـى فقـد حـزت الجميـل مـع الجمـال
وقـد غيبـت وجهـا كـان أشـهى إلـى الظـامي مـن المـاء الـزلال

ثم في نهاية مرثيته يدعو الله عزوجل له بأن يرعاه ويسقيه من عين السلسبيل ، وأن ينعم عليه من الفضائل والخيرات ، ويسكنه أعلى غرف الفردوس ، إذ يقول([4]) :

رعـاه الله غصـنا أذكرتنـي شـمائله نسـيمات الشـمال
وحـي منـزلا فيـه اجتمعنـا وبـالي فـي أمـان مـن وبـالي
سـقاه الله عينـا سلسـبيلا وأسـبغ مـا عليـه مـن الظـلال
وبـوأه مـن الفـردوس مثـوى ورقـاه إلـى الغـرف العـوالي

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 401/2 .
([2]) السابق 401/2-402.
([3]) السابق 402/2.
([4]) السابق 402/2.

ومن الشعراء من نجده قد خاطب الدنيا ملقيا كامل اللوم عليها في فقدان الأحبة ، وقد دعا عليها بالويل ، وذلك بعد أ ن أدرك شدة المصيبة وهول الأمر ، من ذلك ما نجده في رثاء السيوطي لقاضي القضاة المناوي ، الذي توفي سنة 871 هجرية إذ يقول فيه([1]) :

قلت لما مات شيخ العصر حقا باتفاق
حين صار الأمر ما بين جهول وفاق
أيها الدنيا لك الويل إلى يوم التلاق

ومن الشعراء من تمنى قرب لحظة لقائه بالأحبة ، وأن يحظى ولو بساعة خلوة معهم يشكو فيها لهم شدة لوعته وبالغ شوقه ، من ذلك ما نجده عند الشاعر الخطيب في رثائه لقاضي القضاة لسان الدين أحمد بن محمد بن الشحنة الذي توفي سنة 882 هجرية ، يقول([2]) :

متى لي أن أحظى بقرب الأحبة ويسعدني دهري بساعة خلوة
فأشكو أليم البعد والصد والجفا وأبدي لهم همي وذلي ولوعتي

وفي موضع آخر من مرثيته يتحدث الخطيب عن العلة التي توفي فيها القاضي لسان الدين ، علة الطاعون ، إذ يقول([3]) :

وقد هيج الطاعون في الناس علة مضت فيه أرباب الصفا والمحبة
فمنهم لسان الدين قاضي القضاة من هو الركن في الإسلام للحنفية

ثم يذكر الخطيب فضائل وشمائل هذا القاضي ، الذي امتاز بالعفة والحياء وغيرها من فضائل الأخلاق ، ما جعل سيرته العطرة وذكره يعم كل الأماكن ، يقول([4]) :

لقد شاع في كل الأماكن ذكره بحسن ثناء مع حياء وعفة

ثم يسأل الله عز وجل أن يتلطف بحاله ، ويدخله جنات عدن ، فيقول([5]) :

فنسأل رب العرش جل جلاله يعامله باللطف مع عظم رحمة
ويدخله جنات عدن تزخرفت بحور وعين مع رياض بهيجة

([1]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 265 .

([2]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب ، تحقيق محمود حمد الفاخوري ، ويحيى زكريا عبارة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1972 ، 1/124-125 .

([3]) السابق 1/124 .

([4]) السابق 1/125 .

([5]) السابق 1/125 .

ثم في ختام مرثيته يدعو الخطيب لهذا القاضي بالرحمة فيقول([1]) :

عليـــه مـــن الله المهـــيمن رحمـــة علـــى مـــدى الأيـــام فـــي كـــل لمحـــة

أما محمد بن عبد الله الأزهري فقد تحسر على فقد قاضي القضاة لسان الدين أحمد بن محمد بن الشحنة الذي توفي سنة 882 هجرية ، ووصفه بالركن وبسيد الأعيان الذي لا يوجد له مثيل في أي زمن من الأزمان ، ووصف دمعه عليه بالدر الذي يستحيل لونه فيصبح كالمرجان يقول([2]) :

لهفـــي علـــى ركـــن مـــن الأركـــان قاضـــي القضـــاة ســـيد الأعيـــان
وهـــو لســـان الـــدين مولانـــا الـــذي مـــا مثلـــه فـــي ســـالف الأزمـــان
أبكيـــــه درا مســـــتحيلا لونـــــه حتـــى يصـــير الـــدر كالمرجـــان

نلاحظ براعة الأزهري في استخدامه لهذه الصورة الجميلة التي أطلقها والتي يشبه فيها الدموع المنسكبة من العين بالدر في الشفافية إذ يصعب تمييز لونها حتى تصبح هذه الدموع دماءً من لوعة الفراق ، ولذلك قال كالمرجان للدلالة على لونها الأحمر مشيرا بذلك للون الدم .

ولم يكتف الأزهري بالبكاء على هذا القاضي ، بل يشير إلى مكانته المرموقة ودوره الدعوي الفعال إلى جانب القضاء ، فيقول([3]) :

أبكـي علـى خطـب لـه مـع خطبـة ميتـــا وحيـــا دائـــم الأشـــجان
منبـــره أعلامـــه قـــد نكســـت كمثـــل أقـــلام حـــوت لمعـــان
مـــن بعـــده لا در در حلـــب إلا شـــؤون الـــدمع بالأجفـــان
عـــم البكـــاء مرســـلات أدمعـــي لمـــا أتـــى حـــين علـــى الإنســـان
حـــل الحمـــام ذاتـــه فـــي صـــفر فنشـــره قـــد صـــح بالتبيـــان

ثم يدعو الأزهري بأن يسقي الله القبر الذي ضم هذا القاضي ، إذ يقول([4]) :

ســـقيا لقبـــر صـــار فيـــه أحمـــد قـــد حـــف بـــالفردوس والجنـــان
فـــي حلـــب فـــيض حكـــاه أدمعـــي مـــؤرخ عنـــدي مـــدى الطوفـــان

([1])السابق 125/1 .

([2]) محمد راغب الطباخ الحلبي : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 279/5 . = ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 124/1.

([3]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 124/1-125.

([4]) السابق 125/1 .

ولم ينس الأزهري الأوقات التي جمعته مع هذا القاضي ، والتي عظمت من شأنه ، مبيناً أنه لو كان يفتدى لافتداه بروحه وبعينه وبجثمانه ، يقول([1]) :

لـم أنـس أوقـاتي بـه بـين المـلا تواضـعا معظمـا لشـاني

لـو كـان يفـدى مجـده فديتـه بـالروح والعـين مـع الجثمـان

ثم يقسم الأزهري مكررا لفظ الجلالة بغلوه ومكانته الكبيرة في القلوب ، إذ يعد في المنزلة الثانية لديه بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، مبينا شدة حزنه عليه ، مشيدا بفضائله ودوره في إلقاء خطب الجمعة ، والدروس المفيدة للناس بما تحويه من غزير المعاني ، مبينا حزن الخلق على فقده ، وحالة القضاء بعده ، بهذا الفقد الذي أخرس العقول والمنطق عن التفكير ، يقول([2]):

والله ، والله العظـيم لـيس لـي بعـد محمـد سـواه ثـاني

أبكـي بكـا الخنـا عليـه مثلمـا بكـى مـتمم مـدى الأزمـان

كـم جمعـة فيهـا الأنـام جمعـت لخطبـة غزيـرة المعـاني

والخلـق تبكـي والقضـاء قائـل الخطـب والخطيـب فرقـدان

قـد قـام بيـت عـامر مـن شـحنة أثيـره سـما علـى كيـوان

مـن بعـده منطقنـا فـي خـرس لمـا غـدا الـدين مـع اللسـان

هذا ومن الشعراء من شبه مرثوه بالبدر ، وشبه التراب الذي حواه بالسحب التي غاب فيها هذا البدر ، وذلك كما فعل محمد بن أحمد بن إياس الحنفي في رثائه للقاضي بدر الدين بن مزهر الذي توفي سنة 910 هجرية عن عمر يناهز ثلاث وخمسين سنة ، قال([3]) :

خسـف البـدر المفـدا وبسـحب التـرب غابـا

يـا ترابـا ضـم بـدري ليتنـي كنـت ترابـا

وبذلك فقد تمنى ابن إياس أن يكون التراب الذي يضم هذا البدر ، وذلك يتضح من خلال ندائه للتراب الذي ضم هذا القاضي .

وكما وصف الشعراء أحزانهم على من فقدوهم وصفوا أيضا حزن أهل الفقيد عليه وتحدثوا عما حل بهم من مصائب بعد الفراق ، وكيف نحلت أجسامهم وتفتت أكبادهم وأظلمت بيوتهم ، هذا الفراق الذي أدام الليل ومنع بزوغ النهار ، ذلك ما يشتمل عليه قول أحد الشعراء في

([1])السابق 125/1 .

([2]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 1/ 124-125 .

([3]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 71/4 .

رثاء قاضي القضاة – ابن النصيبي – عمر بن عمر زين الدين أبو حفص الذي توفي سنة 912 هجرية([1]):

عمـرت مكانـا فـي حياتـك سـالما ... وعمرتـه مـن بعـد موتـك يـا عمـر
وعمـرت بـالأحزان للأهـل أربعـا ... ولكـن ربـع الصـبر مـن بعـدك انـدثر
وفارقـت أهليـك الـذين تـركتهم ... يحـن علـيهم كـل صـلد مـن الحجـر
وأنحلـت أجسـادا وأبكيـت أعينـا ... وفتـت أكبـادا وأورثتهـا شـرر
ومـا كنـت أدري أن بـدر السـما أفـل ... لطلعتـك الغـراء حتـى جـرى القـدر
فمذ غبت غابت عن أهاليك شمسهم ... ولـيلهم قـد دام والصـبح مـا سـفر
فيرحمـك الـرحمن مـا دمـت ميتـا ... صباحا وفي وقت المساء وفي السحر
ويمـنح خيـرا مـن تركـت معوضـا ... ويلهمهـم صـبرا ويـا فـوز مـن صـبر

هذا وقد زلزلت مصر لموت القاضي موسى بن الشهاب العجلوني المعروف بابن عيد ، وتأسف الناس لفقده كثيرا ، ذلك ما يقوله الشهاب المنصوري في رثائه([2]) :

زلزلـت مصـر يـوم مـات بهـا ... قاضـي القضـاة المهـذب الحنفـي
مـازال طـول الحيـاة فـي شـرف ... حتـى انقضـى العمـر منـه بالشـرف

أما رثاء الفقهاء فلا يكاد يختلف عن رثاء القضاة ، لأن القضاة فقهاء تولوا مناصب القضاء الرفيعة بعلو مكانتهم في العلم أو بقربهم وحظوتهم عند الأمراء والسلاطين ، وقد صور الشعراء في مراثيهم التي نظموها لوعة فراقهم ، وحرقة البكاء عليهم ، وصوروا أثر فقدهم على حياة عامة المسلمين ، وذلك كما فعل السيوطي في رثائه للشيخ الفقيه الشمسني ، الذي توفي في ذي الحجة من سنة 872 هجرية ، حيث قال([3]):

رزء عظـيم بـه تسـتزل العبـر ... وحـادث جـل فيـه الخطـب والغيـر
رزء مصـاب جميـع المسـلمين بـه ... وقلـبهم منـه مكلـوم ومنكسـر
مـا فقد شـيخ شـيوخ المسـلمين سـوى ... انهـدام ركـن عظـيم لـيس ينعمـر
رزيـة عظمـت بالمسـلمين وقـد ... عمـت وطمـت فمـا للقلـب مصـطبر

([1]) ابن الحنبلي: در الحبب في تاريخ أعيان حلب 140/1 . = محمد راغب الطباخ الحلبي : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 344/5 .

([2]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 180/10–181 .

([3]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 282–283 .

صور السيوطي فقد هذا الفقيه بالحادث الجلل والمصيبة التي عمت جميع المسلمين فأكلمت قلوبهم ، ثم يشبه فقده بالركن العظيم الذي هدم وهيهات أن يعمر .

أما الشرف بن المقرئ فقد جعل موت الفقيه الصالح إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد بن عجيل اليماني مصاباً لكل المنازل ، حيث جعل كل طلاب العلم من الناشئين ثكالى أرامل ، قال([1]):

وما موت إسماعيل موت مجاور إذا مات أبكى ابنا وأوحش منزلا
ولكنه موت رمى كل منزل بما أرمل الناشين فيه وأثكلا

ولم يكتف ابن الجزري بالحزن والبكاء على هذا الفقيه ، بل يقدم روحه رخيصة يفديه بها ويرى ذلك قليلا ، إذ يقول([2]) :

لو يفدى بالروح كان قليلا ليس بدعا فداء إسماعيلا

وقد رثى الشهاب الحجازي الفقيه ابن الكماخي([3]) ، فقال([4]):

من رحمة الله فلا تيأسن إن كنت في العالم ذا مرحمه
فمن يكن في الناس ذا رحمة حق على الرحمن أن يرحمه

فلسان حال الحجازي في قوله هذا يقول : أيها الفقيه الذي اشتهر بيننا بالرحمة أبشر برحمة من الله صاحب الرحمة .

([1]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 280/2-281 .

([2]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 280/2-281 .

([3]) هو إبراهيم بن القاضي شمس الدين القاهري الحنفي سبط السراج قارئ الهداية ، الذي توفي سنة 886 للهجرة .

([4]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 161/1.

رثاء العلماء والأدباء :

حظي علماء وأدباء هذا العصر بنصيب وافر من المراثي ، حيث نظم فيهم الشعراء المرثيات المفعمة بالحزن والأسى ، كيف لا وهم من يمثلون منارة الأمة وصرحها الحضاري ومرآتها الثقافية ، وذلك بما خلدوه من مؤلفات وموسوعات ضخمة حوت الكثير من المعارف والعلوم التي تركت بصماتهم عليها ، لتصبح إرثا ثمينا تستفيد منه الأجيال القادمة ...

لذا حُق لكل من يقرأ هذا الإرث القيم الترحم على أصحابه ، ومن هذا المنطلق كان رثاء الشعراء مفعما بالحزن العميق ، والأسى الدفيق ، حيث لم يجدوا سبيلا للتعبير عما يكابد نفوسهم من أسى ، ويعتصر قلوبهم من ألم وحزن لفقد أولئك النجوم التي تلمع في أفق الذاكرة سوى بكلمات حراقة تذيب الأعين بكاء ، وتعتصر القلوب شجوا ، وبذلك مضى الشعراء يرثون علمائَهم وأدبائَهم معددين صفاتهم ومناقبهم ، مبينين مكانتهم العلمية والأدبية التي حظوا بها ...

حيث تنوعت المعاني التي استخدمها الشعراء في رثاء علمائهم وأدبائهم ، معبرين بذلك عن أثر موتهم على نواحي الحياة المختلفة ، وبصماتهم العلمية التي تركوها في كل نفس وقارئ ، وفي ذلك نتناول بعض النماذج التي تبين مكانة أولئك العلماء والأدباء من خلال مرثيات الشعراء التي نظموها فيهم ، فمن ذلك مثلا نستحضر رثاء ابن أبي حجلة للشيخ الإمام العالم أكمل الدين محمد ، ابن الشيخ جمال الدين أبي الثناء محمود الرومي البابرتي الحنفي شيخ الخانقاه الشيخونية ، الذي توفي في ليلة الجمعة ، تاسع عشر من شهر رمضان سنة 786 هجرية ، وقد رثاه بقوله([1]) :

شـــيخ إلـــى ســـبل الرشـــاد ملـــك ... وســـبيله فـــي العلـــم مـــا لا يجهـــل
شـيخ تبحـر فـي العلـوم فمـن رأى ... بحـــرا يســـوغ لوارديـــه المنهـــل
شـيخ عليـه مـن المهابـة رونـق ... كالبـــدر لكـــن وجهـــه متهلـــل
شـــيخ تقـــدم فـــي العلـــوم لأنـــه ... إن عـــد أربـــاب الفضـــائل أول
شـــيخ بحســـن بيانـــه وشـــروحه ... مـــا بـــات بالمفتـــاح بـــاب مقفـــل
مـــا قيـــل هـــذا كامـــل فـــي ذاتـــه ... إلا وقلـــت الشـــيخ عنـــدي أكمـــل

يبين ابن أبي حجلة في مرثيته هذه مكانة هذا العالم العلامة وفضائله ، فهو البحر الذي يجود على الآخرين بعلمه ، وهو البدر ذو الإشراقة الناصعة البراقة في وجهه البهي ، ثم يعلل ابن أبي حجلة سبب تقدم هذا العالم في العلوم بسبقه فهو دائما في المرتبة الأولى إذا ما ذكر أصحاب الفضائل في مجلس من مجالس العلم ، وهو المفتاح الذي يفتح كل باب استعصى فتحه على الآخرين وذلك بما يملكه من ملكة البيان والشرح المفصل لمختلف المسائل والتبحر في العلوم ...

([1]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 352/1 .

ومما يلاحظ هنا تكرار ابن أبي حجلة في مرثيته لقوله "شيخ" أكثر من مرة ، مما يدلل ذلك على مكانة هذا العالم ومنزلته الجليلة .

وفي رثائه أيضا يقول الشهاب بن العطار مقرا بفضله الذي عم الجميع شرفا([1]) :

رم شـــيخ الإســـلام الـــذي فضـــله قـــد عمنـــا تشـــريفه المكمـــل

وكيـــــف لا يعطـــــى والـــــذي بـــدا بـــه ســـعد الـــروي الأكمـــل

كذلك يبين ابن العطار مكانة الشيخ محمد بن عثمان القرمي القادري الذي توفي بالقدس في شهر رجب سنة 788 هجرية ، وكان من أكابر الأولياء ، حيث أشاد بفضله في حمايته لمصر والشام ، فقال في رثائه([2]) :

محمد القرمي قطب الزمان قضى نحبا وصار لدار الخلد والنعم

والقدس كان حوى نعم الخليل به ومصر والشام كانا في حمى القرمي

ومن الشعراء من لجأ إلى الموشحات لرثاء بعض العلماء والأدباء ، وذلك كما فعل حميد الضرير في تأبينه للعالم الفاضل أبو الرضى أحمد بن عمر الحموي ، الذي توفي سنة 791 هجرية ، فرسم له صورة مثالية ، فهو عالم افتقدته بعد موته المدارس والعلوم ، وحزنت عليه العلماء والطلاب ، وهو بالإضافة إلى ذلك أيضا صامد على الحق أمام إغراءات المناصب ، غير ساع إليها ، ولا يطرق الأبواب من أجلها ، بينما نراه يكثر زيارة أهل الفضل والتقوى ، وأما في قضائه فعادل نزيه يسوي بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويأخذ على أيدي الجناة ويبطل المظالم والرشاوى ، إذ يقول في رثائه([3]) :

على ابن أبي الرضا مر اصطباري وسارا

وعيني قد جرت من عظم ناري بحارا

مدارس درسه اشتاقت إليه وحن العلم والعلما لديه

وأشياخ الحديث بكت عليه

فكم سألوه عن نص البخاري مرارا

فحبر في الجواب بلا اعتذار كبارا

إمام كان في كل العلوم يعم على الخصائص والعموم

ويكرم ضيفه عند القدوم

([1]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 1/ 352 .

([2]) ابن إياس الحنفي : المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور 229.

([3]) محمد راغب الطباخ الحلبي : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 103/5 .

ويحســـن للفقيـــر بـــلا احتقـــار وقارا
ويكســـو بالفضـــائل كـــل عـــار إزارا
لأهـــل الفضـــل كـــان يقـــوم يلقـــى ويعشـــق مـــن يحـــب العلـــم عشـــقا
وإن أفتى ترى فتواه حقا
فأصـــحاب الفتـــاوي فـــي انحصـــار حيارى
وقـــد عدمتـــه أهـــل الاختيـــار بدارا
فريـــدا كـــان فـــي نقـــل المـــذاهب فللطـــلاب كـــم أبـــدى غرائـــب
وفي حلب لقد صعد المناصب
ولا يســـــعى لأبـــــواب الكبـــــار نهارا
ولـــم يقطـــع لأهـــل الافتقـــار مزارا
جـــواد كـــان فـــي رد الجـــواب وكـــم فـــي العلـــم ألـــف مـــن كتـــاب
وميز للمشايخ والشباب
وكانـــت منـــه أهـــل الاشـــتهار فخارا
ولا يرعـــى الملـــوك ولا يـــداري إمارا
لقـــد بطـــل الرشـــى لمـــا تقضـــى وكـــم قـــد رد بعـــد الحـــل أرضـــا
وكان الغيظ يكظمه ويرضى

إن مضي هذا العالم حيّر فكر الشاعر حميد الضرير حتى أنه يسائل نفسه هل وجد هذا العالم في الدنيا حقاً ، وهل رحل وغيبه الموت عن أولاده ، وجعل الديار موحشة بعده ، حيث يقول([1]):

لمـــن أســـعى لقـــد زاد افتكـــاري وحارا
وعقلـــي طـــار مـــن بعـــد اختيـــاري نفارا
مضـــى ابـــن أبـــي الرضـــى حمـــدا وولـــى وســـافر ســـفرة مـــا عـــاد أصـــلا
ترى هل كان في الدنيا وولى
فعـــــن أولاده وعـــــن الـــــذراري توارى
وأوحـــش حـــين ســـار إلـــى القفـــار ديارا
مضى ابن أبي الرضى قاضي القضاة وأصـــبحت المنـــازل خاليـــات

([1]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 103/5 .

ثم يتحدث حميد الضرير عما أعد الله عز وجل للمؤمنين من قصور جميلة ، ولباس من حرير ، وما إلى ذلك من مختلف النعم والخيرات ، مشيرا بذلك لتقوى وورع هذا العالم ، ثم في نهاية مرثيته يخاطب حميد الضرير دموعه بعدم التوقف عن البكاء لفقد ورحيل هذا العالم ، هذا الرحيل الذي كوى قلبه ألما ، يقول([1]) :

سيسكن في القصور العاليات

ويلـــبس مـــن حريـــر الافتخـــار شعارا
ويلقـــى الجبـــر بعـــد الانكســـار فخارا
عليـــه يـــا دمـــوعي هيـــا هيـــا فقلبـــي قـــد كـــواه البـــين كيـــا

أقول ومن قضى لو كان حيا

على ابن أبي الرضى مر اصطباري وسارا
وعينـي قـد جـرت مـن عظـم نـاري بحارا

ومن المراثي التي لم يصلنا منها سوى مطلعها المرثية التي نظمها الهادي إبراهيم في رثاء الإمام العلامة إبراهيم الكينعي الذي توفي سنة 793 هـ ، يقول في مطلعها([2]) :

شـــجر الســـلامة والكرامـــة أينعـــي للقـــاء ســـيدنا الإمـــام الكينعـــي

أما ابن حجر العسقلاني فقد خاطب عينه بأن تجود بسكب الدموع ألما وحزنا على فقد عالم جليل بحر في العلم وهو العالم سراج الدين البلقيني ، الذي توفي في عاشر ذي القعدة سنة 805 هجرية ، إذ يقول في رثائه([3]) :

يـا عـين جـودي لفقد البحـر بـالمطر واذرفـي الـدموع ولا تبقـي ولا تـذري
لـورد ترديـد دمـع ذاهبـا سـبقت شـهب وحمـر بعينـي جريـة النهـر
تسـقي الثـرى فمتـى لام العـذول أقـل دعهـا سـماوية تجـري علـى قـدر
يـا سـائلي جهـرة عمـا أكابـده عـدتك حـالي لا سـرى بمسـتتر
لـم يعـل منـي سـوى أنفـاس الصـعدا ولسـت أبصـر دمعـي غيـر منحـدر

([1]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 103/5 .

([2]) محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 10/1 .

([3]) القصيدة طويلة جدا ، للاستزادة انظر : ديوان ابن حجر العسقلاني ، تحقيق فردوس نور علي حسين ، دار الفضـيلة للنشـر والتوزيـع ، ص 214-215 . = بـدائع الزهـور فـي وقـائع الـدهور 674/1-675 . = السيوطي : حسن المحاضرة ، ص192 .

ثم يصف ابن حجر حاله بعد فقد هذا العالم ، إذ بات يقضى نهاره في الهم والحزن ، وليله في الفكر والسهر ، كما وأصبح قلبه مهموما ، ودموعه تتساقط كالدرر ، إذ يقول([1]) :

أقضي نهاري في هم وفي حزن وطول ليلي في فكر وفي سهر
وغاص قلبي في بحر الهموم أما ترى سقيط دموعي منه كالدرر
فرحمة الله والرضوان يشمله سلامه ما بكى باك على عمر

ثم يعدد ابن حجر فضائل هذا العالم ، ودوره الفعال في حياته التي استغلها في الاشتغال بالعلم وخدمة مجتمعه ودينه من بنائه للقواعد التي لا ينخرها السوس ، بل والمسائل التي كان يلقيها ويستفيد الناس منها ، والفتاوى التي كان يستفتى بها فيجيب عنها إجابات شافية تشفي السائلين عن الإجابة ، والمشكلات التي كان يحتار منها فكر الناس فيلتجئون إليه ويحتكمون إلى رأيه في حلها ، يقول([2]) :

بحر العلوم الذي ما كدرته دلا من المسايل إن تشكل وإن تدر
والحبر كم حبرت طرسا يراعته حتى يجانس بين الحبر والحبر
لم أنس لما يحف الطالبون به مثل الكواكب إذ يحففن بالقمر
فيقسم العلم في مقت ومبتدئ كقسمة الغيث بين النبت والشجر
ولم يخص ببشر منه ذا نشب بل عمهم فضله بالبشر والبشر
لقد أقام منار الدين متضحا سراجه فأضاء الكون للبشر
في القرن الأول والقرن الأخير لقد أحيا لنا عمران الدين عن قدر
في الاسم والعلم والتقوى قد اجتمعا وإنما افترقا في العصر والعمر
لكن أضاء سراج الدين منفردا وذاك مشترك مع سبعة زهر
من للفضائل أو من للفواضل أو من للمسائل يلقيها بلا ضجر
من للفوائد أو من للعوائد أو من للقواعد يبنيها بلا خور
من للفتاوى وحل المشكلات إذا جل الخطاب وظل القوم في فكر
لمن يكون اختلاف الناس إن اتفقت عمياء والحكم فيها غير مستطر

([1]) ديوان ابن حجر العسقلاني 214-215.

([2]) ديوان ابن حجر العسقلاني215.

كذلك يصف ابن حجر حاله عند رحيل شيخه زين الدين العراقي الشافعي الذي توفي سنة 806 هجرية ، هذا الرحيل الذي معه تدفقت الدموع أنهارا مفعمة بالحزن ، كما وعظمت المصيبة ، وتجلت علامات االقيامة ، ذلك ما يشتمل عليه قوله([1]):

مصـــاب لـــم يـــنفس للخنـــاق أصـــار الـــدمع جـــارا للمـــآق
فبحـر الـدمع يجـري فـي انـدفاق وبـدر الصـبر يسـري فـي المحـاق
وللأحـــزان بالقلـــب اجتمـــاع ينـادي الصـبر حـي علـى افتـراق
لقـد عظمـت مصـيبتنا وجلـت تسـوق إلـى العلـوم أي اتسـاق
وأشـــراط القيامـــة قـــد تبـــدت وآذن بـــالنوى داعـــي الفـــراق

ثم يحث ابن حجر أهل مصر والشام على البكاء على هذا العالم العلامة الذي حوى جميع علوم الشرع بالحفظ والجمع ، كما وتميز بالرقي في القراءات السبع ، وكان من أقدم من أجيزوا في الحديث ، فكان في المقدمة ، وحاز السبق ، فصار ذكره على كل لسان ، وأضحى يشار إليه بالبنان ، حيث برع بتخريج الأحاديث وشرحها ، ما جعله يرقى لأعلى مراتب العلم ، ثم في ختام قصيدته يترحم ابن حجر على شيخه ، ويسأل الله عز وجل له أن يسكنه الجنان ، إذ يقول([2]):

فيـا أهـل الشـام ومصـر فـابكوا علـى عبـد الـرحيم بـن العراقـي
علـى حـاوي علـوم الشـرع جمعـا بحفـظ لا يخـاف مـن الإبـاق
ومـن فتحـت لـه قـدما علـوم غـدت عـن غيـره ذات انغـلاق
وبالســبع القــراءات العــوالي رقـا قـدما إلـى السـبع الطبـاق
مجـازا بالحـديث قـديم عهـد فـأحرز دونـه خيـل السـباق
فصـير ذكـره يسـمو وينمـو بتخـريج الأحاديـث الرقـاق
وشـرح الترمـذي بـه ترقـا إلـى درج العـلا أعـلا المراقـي
فـوا أسـفي لتغييـرات علـم تولـت بعـده ذات انطـلاق
عليـه سـلام ربـي كـل حـين يلاقيـه الرضـا فيمـا يلاقـي
وأسـقت ظلـه سـحب الغـوادي إذا أنهلـت همـت ذات انطبـاق
ودانـت رحمتـه فـي كـل يـوم بجنـات إلـى يـوم التلاقـي

([1]) ديوان ابن حجر العسقلاني 275 – 278 . = ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر بأبناء العمر 278/8 .
([2]) ديوان ابن حجر العسقلاني 277–278 . = إنباء الغمر بأبناء العمر 278/8 .

هذا وقد وازن ابن حجر في بعض مراثيه بين جليلين اتفقت سنوات حياتهما ، شيخه زين الدين العراقي الذي توفي سنة 806 هجرية ، وسراج الدين عمر ، توفيا ولهما من العمر إحدى وثمانون سنة وربع السنة ، يقول([1]) :

لا ينقضي عجبي من وفق عمرها العام كالعام حتى الشهر كالشهر
عاشا ثمانين عاما بعده سنة وربع عام سوى نقص لمعتبر

أما ابن الجزري فيقسم أنه لا يوجد مثيلاً للحافظ العراقي ، إذ يقول في رثائه([2]) :

رحمة الله للعراقي تترى حافظ الأرض حبرها باتفاق
إنني مقسم أليه صدق لم يكن في البلاد مثل العراقي

ومما قيل في رثاء شيخ الكتاب بالديار المصرية الشيخ علاء الدين علي بن محمد بن علي بن عصفور المالكي ، الذي كتب عهد الملك المنصور عبد العزيز بالسلطنة ، المتوفي سنة 808 هجرية ([3]) :

قد نسخ الكتاب من بعده عصفور لما طار للخلد
مذ كتب العهد قضى نحبه وكان منه آخر العهد

وقد بكى الشهاب المنصوري وفاة الشيخ شهاب الدين أحمد بن سليمان البلقاسي ، الذي توفي سنة 852 هجرية ، فقال يرثيه([4]) :

بكيت على فتى في القبر ثاوي فأبكيت المسائل والفتاوي
أبا العباس ذا الفضل المزكى شهاب الدين أحمد الزواوي

أما العلامة كمال الدين السيوطي الذي توفي سنة 855 هجرية فقد ملأت العيون بكاء لفقده ، وأضرم قلب المنصوري لوعة وحزنا لذاك الفقد فقال([5]):

مات الكمال فقالوا ولى الحجا والجلال
فللعيون بكاء وللدموع انهمال
وفي فؤادي حزن ولوعة لا تزال

([1]) إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني 277/2.
([2]) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 248/1 .
([3]) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 111/13.
([4]) السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان ، ص42 .
([5]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ص 262-263 .

أما أحمد بن بكر سراج الدين فقد ذرفت عيونه دماء لفقد شهاب الدين أحمد بن أبي بكر ، المشهور بالمرعشي ، الذي توفي سنة 872 هجرية ، حيث كان إماما عالماً عادلاً ، إذ يقول في رثائه([1]) :

عيوني في الصباح وفي العشي تسح دما لفقد المرعشي
إمام كان في الشهبا شهابا منيرا لم يزل يهوي الصوابا
ولن تلقاه يوما قط حابي
فمال على الضعيف مع القوي ولا مع ذي العلوم على الخلي

وكعادة كثير من شعراء العصر يختم سراج الدين مرثيته باللجوء للمولى عز وجل متضرعا رافعا أكفه داعيا إياه أن ينير قبر هذا الإمام بنور رحمته ورضاه ، إذ يقول([2]) :

فيا مولى إليه الخلق تفزع ومن أبوابه الراجون تقرع
ومن قصص الأنام إليه ترفع
بسلطة صاحب القدر العلي أنر برضاك قبر المرعشي

ومثله قد فعل الشهاب المنصوري الذي بكى الشيخ الكافيجي دماء من القلوب ، كيف لا وهو الشيخ الذي كان بحرا في العلوم ، وتميز بمكارم الأخلاق الحميدة فبات نورا يضيء للناس طريقهم ، ويأخذ بيدهم إلى الحق والخير وينورهم بنور علمه ، ولا يرد سائل إلا وأجابه فكيف وقد أصبح هذا النور منطفئا وقد كانت الناس تمشي في قبسه ، بل كان المقرئ الذي تطرب الآذان بسماع صوته ، ثم في نهاية مرثيته يدعو المنصوري لهذا الشيخ بأن يلبسه الله السندس المنسوج بمغفرة الغفار ، يقول([3]) :

بكت على الشيخ محي الدين كافيجي عيوننا بدموع من دم المهج
كانت أسارير هذا الدهر من درر تزهى فبدل ذاك الدر بالسبج
فكم نفى بسماح من مكارمه فقرا وقوم بالإعطاء من عوج
يا نور أراه اليوم منطفئاً وكانت الناس تمشي منه في سرج
ولو سرت بثناه عند ريح صبا لاستنشقوا من شذاها أطيب الأرج
يا وحشة العلم من فيه إذا اعتركت أبطاله فتوارت في دجى الزهج
لم يلحقوا شأن علم من خصائصه أبى ورتبته في أرفع الدرج
قد طال ما كان يقرئنا ويقرئنا في حالتيه بوجه منه مبتهج

([1]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 178/1 .
([2]) السابق 178/1.
([3]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور3/98-99 . = السيوطي : حسن المحاضرة 329 .

سـقيا لـه وكسـاه الله نـور سـنا مـن سـندس بيـد الغفـران منتسـج

إن الدعاء للميت في ختام المرثية يكاد يكون عرفاً بين شعراء المراثي ، ومن صور هذا الرثاء أيضاً رثاء السيوطي للشيخ سيف الدين الحنفي الذي توفي في ذي القعدة سنة 881 هجرية ، وقد أشاد بفضله ومكانته المرموقة ، فهو العالم المبحر في شتى العلوم ، وهو الإمام الصالح الزاهد في الدنيا ، بل هو الرجل الذي يهوى الخير ويتخذ من الصواب والحق سبيلا لا يحيد عنه ، وهو الشيخ الذي قضى وأمضى عمره كله في اجتهاده بعلوم الدين وما يرضي الله عز وجل ، ثم في نهاية مرثيته يترحم السيوطي على هذا العلامة ، ويدعو الله عز وجل له واسع المغفرة ، وأن يحشره يوم القيامة مع أهل الصدق والصلاح ، يقول([1]):

مـات سـيف الـدين منفـردا وغـدا فـي اللحـد منغمـدا
عـالم الـدنيا وصـالحها لـم تـزل أحوالـه رشـدا
يبكيـه ديـن النبـي إذا مـا أتـاه ملحـد كمـدا
إنمـا يبكـي علـى رجـل قـد غـدا فـي الخيـر معتمـدا
فـي الـذي قـد كـان مـن ورع لـم يخلـف بعـده أحـدا
لـم يكـن فـي دينـه وضـن لا ولا للكبـر منـه ردا
عمـره أفنـاه فـي نصـب لإلـه العـرش مجتهـدا
مـن صـلاة أو مطالعـة أو كتـاب الله مقتصـدا
ليـت شـعري مـن نؤملـه بعـد هـذا الحبـر ملتحـدا
ثلمـة فـي الـدين موتتـه مـا لهـا مـن جـابر أبـدا
قـد روينـا ذاك فـي خبـر وهـو موصـول لنـا سـندا
فعليـه هامعـات رضـى ومـن الغفـران سـحب نـدا
وبعننـا ضـمن زمرتـه مـع أهيـل الصـدق والشـهبا

لقد تفنن الشعراء في التعبير عن أثر غياب الميت عن الدنيا ، من ذلك ما نراه في رثاء الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي للشيخ العلامة بدر الدين بن غرس الذي توفي سنة 894 هجرية ، حيث يرى أن الظلام قد عمّ مصر ، وأصبحت الدنيا جرداء قاحلة لأنه كان وحيد عصره ، ولأنه البدر الذي أضاء ليالي عصره بنور العلم والمعرفة ، يقول([2]):

لقـد أظلمـت مصـر وأقفـرت الـدنيا لموت عديم المثل بل أوحد العصر
سـأعجب إن ضـاءت ليـالي عصـرنا وكيف يكون الضوء مع عدم البدر

([1]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 123/3-124 . = حسن المحاضرة 285 .
([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 263/3 .

كذلك ما قاله عبد الباسط الحنفي في رثاء الشيخ الأسيوطي ، حيث بدأ بالإشادة بمكانة الأسيوطي العلمية المرموقة ، مخاطبا عيونه بذرف الدموع حزنا عليه ، ثم خاطب دنياه بأن تظلم، وأن يختفي النور والضياء ، ويعم الظلام حدادا عليه ، فبرحيله حق لجميع الناس الحزن والبكاء عليه ، وحق للسماء أن تطوى طيا ، وللأرض أن تبلع مائها لمثل هذه المصيبة التي عمت الوجود ، وأشعلت برحيل ذالك العلامة نار الكبود ، ثم في ختام مرثيته يتوجه الحنفي لله عز وجل بدعائه بأن يصبرهم على ما حل بهم ، ثم يدعو لهذا العالم بأن يدخله الله دار الخلود ، ويتغمده بواسع رحمته ، يقول([1]) :

مات جلال الدين غوث الورى ... مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنة مهدي الهدى ... ومرشد الضال لنفع يعود
فيا عيون انهملي بعده ... ويا قلوب انفطري بالوفود
وأظلمي دنياي إذ حق ذا ... بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق للنور بأن يختفي ... ولليالي البيض أن تبق سود
وحق للناس بأن يحزنوا ... بل حق أن كلا بنفس يجود
وحق للأجيال حزا وأن ... تطوى السماء طيا كيوم الوعود
وأن يغور الماء والأرض أن ... تميدا إذ عم المصاب الوجود
مصيبة جلت فحلت بنا ... وأورثت نار اشتعال الكبود
صبرنا الله عليها وأولاه ... نعيما حل دار الخلود
وعمه منه بنيل الرضى ... والغيث بالرحمة بين اللحود

هذا ومن المراثي التي لم ينقل المؤرخون منها سوى مطلعها المرثية التي نظمها عبد الله الشيرازي في رثائه لفخر الدين بن ظهيرة ، إذ يقول آمرا عينه بأن تجود بذرف الدموع لرحيل هذا العلامة([2]):

يا عين جودي بدمع منك منسجم ... لفقد عين الكرام العالم العلم

ومن ذلك أيضا المرثية التي نظمها أبو الخير في رثاء العلامة ابن موسى التي نفى فيها وأنكر أن يكون هناك علامة أجدر من ابن موسى في اشتغاله بالعلم والأدب بعد رحيله ، يقول في مطلعها([3]) :

من للمحابر والأقلام والكتب ... بعد ابن موسى ومن للعلم والأدب

([1]) الصالحي ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان 243-244 . = بدائع الزهور في وقائع الدهور 83/4.
([2]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 31/5 .
([3]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 58/10 .

رثاء الأدباء :

ذخر هذا العصر بمختلف الأدباء والشعراء الذين تركوا بصماتهم الواضحة في مضمار العلم والأدب ، هؤلاء الأدباء والشعراء الذين أبدعوا وتفننوا فكان لهم حق الصدارة ، وكانوا في المقدمة ، فأضحى يشار إليهم بالبنان ويهتز برحيلهم الوجدان ، وذلك من أمثال الأديب شمس الدين النواجي ، و الشهاب بن حجى ، والشهاب ابن الشاب التائب ، والشهاب بن أبي السعود ، والشهاب بن مبارك شاه الدمشقي ، والشهاب بن صالح ، والشهاب الحجازي ، والشهاب المنصوري والذين اجتمعوا في عصر واحد، والذين عرفوا بالسبعة الشهب ...

هؤلاء الأدباء و الشعراء الذين باتوا شهبا لامعة في أفق الذاكرة ، والذين بفقدهم أظلم أفق الشعر والأدب ، وأصبح العيش بعدهم مكدرا لا طعم له ، هذا ما يقوله الشهاب المنصوري – مثلا – في رثائه لهم ، وقد تلهف عليهم ، وتمنى لو يصونهم كما تصون العين الهدب ، مؤكدا أن عيونه ما أنصفتهم في البكاء ، حتى ولو هطلت الأمطار الغزيرة حزنا عليهم ، كيف لا وهم من زينوا بنظمهم ، بل وبأخلاقهم ، وفضائلهم وسيرتهم العطرة الدنيا بأكملها ، لذا فقد حق عليهم البكاء ، ثم يذكرنا الشهاب المنصوري بالحقيقة المرة التي لابد لكل إنسان من ملاقاتها ، والتي لا عجب فيها وهي حقيقة الموت ، ثم بعد ذلك يختتم المنصوري مرثيته بالدعاء لهم بالرحمة والرضوان ، يقول([1]) :

خلت سماء المعاني من سنا الشهب ... فالآن أظلم أفق الشعر والأدب
تقطب العيش وجها بعد رحلة من ... تجانبوا بالمعاني مركز القطب
تعطلت خرد الأيام من درر ... كانت تحلى بها منهم ومن دهب
لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت ... بهم كما يبطر الإنسان بالنسب
ولو درى المسك أن الأرض قبرهم ... لود نشقة عرف من شذى الترب
لهفي عليهم إذ التذ السماع مما ... أهدوا إليه التذاذ الذوق بالضرب
إن أبدلوا طربي بالحزن بعدهم ... فطال ما أبدلوا الأحزان بالطرب
لو كان صونهم يا قلب يمكنني ... لصنتهم بك صون العين بالهدب
ما أنصفتهم عيوني في البكا ولو ... أغنت مدامعها عن وابل السحب
فطالما سلكوا نهج البديع وما ... هدوا إليه هدي الأقمار للنجب
قد كان من أربى تهذيب قافية ... واليوم لم أربي ميلا إلى أرب
زانوا بنظمهم الدنيا ولا عجب ... إذا تزينت الظلماء بالشهب
لا تعجبن إن قضوا نحبا وفاجأهم ... ريب المنون فما في الموت من عجب

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 58/3 .

سـقى ثـراهم غـواد لا انقشـاع لهـا عيونهـا مثـل أفـواه مـن القـرب

وعنـدما تـوفي الشـهاب الحجـازي فـي رمضـان سـنة 875 هـجرية ، أفـرده الشـهاب المنصوري بمرثية يصور فيها مدى حزنه عليه وقد تساءل منكرا أن يكون بعد فقده لذة للعيش ، يقول([1]) :

زادنـــي فقـــد الحجـــازي شـــجى هـل يطيـب العـيش فقـدان الحجـا
لـــو درى القمـــرى أبـــدى نوحـــه أو غـــراب البـــين فيـــه شـــججا
ســـار فـــي زورق نعـــش قاطعـــا منـــك يـــا بحـــر المنايـــا لججـــا
وامتطـــى طـــرف الـــردى مســـتوقرا طالبـــا مـــن هـــم دنيـــاه النجـــا

ضمن المنصوري مرثيته بالصور والتشبيهات الجميلة ، فمن ذلك مثلا ما نجده في الصورة التي يشبه فيها نعش الحجازي بالزورق الذي يقطع بحر الموت ، كما ويشبه في صورة أخرى الموت بالحصان ، و الحجازي بالفارس الذي يمتطي هذا الحصان طالبا النجاة من هموم الدنيا التي تلاحقه ...

ثم يبين المنصوري مكانة هذا الأديب ومنزلته ، فمصر بأكملها تبكي لرحيله ، هذا الرحيل الذي أذاب القلوب من لوعة الحزن ، لأنه كان مثالا للمؤمن الصالح الذي سيرقى الجنان ويلقى الضياء ، يقول([2]) :

إن يكـن فـي التـرب أمسـى هابطـا فســـيرقى فـــي الجنـــان الـــدرجا
أو يكـــن ليـــل الضـــريح عـــاكرا فســـــيلقاه شـــــهابا أبلجـــــا
فلتطـــب أرجـــاء قبـــر زارهـــا إنهـــا حاكتـــه فـــي حســـن الرجـــا
فالحجـــازي بكتـــه مصـــره والشـــهاب اشـــتاقه بـــدر الـــدجا
لـــيس بـــدعا إن بكينـــاه دمـــا لهـــب الحـــزن يـــذيب المهجـــا

وفي ختام مرثيته يصف المنصوري حاله بعد رحيل الحجازي ، ويدعو الله عز وجل له بالرحمة وأن يسقي ثراه ، إذ يقول([3]) :

إن تســـل عـــن حـــالتي بعـــده فســـل الليـــالي إذا الليـــل دجـــا
أدمـــع العـــين جـــواد والبكـــا خـــادم ألفيتـــه لـــي فرجـــا
رجـم الســهد الكـرى بالـدمع مـن محجـر العينـين حتـى عرجـا
فســـــقى الله ثـــــراه وابـــــلا ينبـــت الـــروض ويهـــدي الأرجـــا

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 57/3 .
([2]) السابق 58/3 .
([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 58/3 .

وفي مرثية أخرى يتلهف المنصوري على رحيل الحجازي وغيابه في الثرى بعد أن كان زينة القوم وبهجة النفوس ، لقد كان بحرا ذاخرا في علم البلاغة ومختلف علوم الآداب ، مبينا مدى لوعة الحزن بفراقه ، إذ باتت تبكي لفقده السحب بمدامع غزيرة ممتلئة بالألم لغيابه ، وأن ذكراه ستخلدها عند أرباب العقول كتبه القيمة ، يقول([1]):

لهف قلبي على أفول الشهاب تحفة القوم ونزهة الأصحاب
كان في مطلع البلاغة يسري فتوارى من الثرى بحجاب
فقدت بره أيامي المعاني ويتامى جواهر الآداب
هطلت أدمع السحاب عليه وقليل فيه دموع السحاب
وذوو الجمع أصبحوا حين ولى كلهم جامعا بلا محراب
ربع بلواي آهل منذ أحلى كتبي من سؤاله والجواب
يا شهابا طلوعه في سما الفضل ولكن أفوله في التراب
لك فيما ألفت تذكرة مما انتقى دره أولو الألباب

كذلك رثى المنصوري الأديب البارع شاعر العصر شمس الدين النواجي الذي توفي سنة 859 هجرية ، وفي ختام قصيدته ترحم عليه بقوله([2]) :

رحم الله النواجي فقد فقد الدنيا وأبقى ما روى
وانطوى في شقة البين فيا حسرة العشاق من بعد النوا

إلى غير ذلك من صور الرثاء التي بكى فيها الشعراء مشاهير عصرهم ، من سلاطين وأمراء ووزراء وقضاة وفقهاء وعلماء وأدباء .

([1]) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة 574/1 .

([2]) ابن إياس الحنفي : المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور 343 –356.

الفصل الثاني

رثاء الأقارب والأصدقاء

أولاً : رثاء الأقارب :

هو الرثاء الذي يدخل معظمه في باب الندب والنواح ، حيث النفوس المكلومة لفقد عزيز والعواطف المحمومة التي لا يحد من تأججها شيء سوى الرجوع إلى الله والتسليم بقضائه وقدره ولأن العصر المملوكي عامة اتسم بالتدين ساد التوازن بين الحزن الشديد ومعاني التسليم لمشيئة الله عزّ وجلّ وتدبر سنته في خلقه .

وقد ارتبطت العاطفة قوة وضعفاً بمنزلة الميت وصلة القربى به ، فالعاطفة في رثاء الأبناء أنتجت دائماً شعر الندب والنواح ، بينما أنتجت شعر التأبين أو العزاء في رثاء الأقارب البعيدين أو الأصدقاء ، وهذا هو الحال في عصر المماليك الشراكسة – وكل عصر – ، حيث بكى شعراء هذا العصر أقاربهم ، وناحوا عليهم أحياناً ورثوهم بكل ما تحمله الكلمات من معاني الحزن ، هذا الرثاء الذي ما وجدوا سبيلا للتعبير عن الألم الذي يعتصر قلوبهم إلا به ، ففيه يعبر الشاعر عما يكابد قلبه ويختلج صدره من أحزان وآلام ... وسوف نستعرض أولا رثاء الأبناء ونتعرف على المعاني والأساليب المختلفة التي جسدت معاني الحزن والأسى على فراق الأحبة فلذات الأكباد ...

رثاء الأبناء :

كم هي صعبة حالة العي والذهول التي يصاب بها من اعتصر قلبه ألما ، وتمزقت جوارحه حزنا على أعز من فقد ... الابن الذي هو أغلى ما يملك الإنسان ، بل هو من يزرع فيه الأب أحلامه ، ويبني عليه طموحاته وآماله ، فكيف وقد اختطفه الموت من أمام ناظريه مخلفا في نفسه جرحا عميقا لا يتوقف نزيفه ، بل وندبة يستحيل إخفاؤها في صفحات النسيان ، فيتذكر همساته .. كلماته .. بسماته .. خطواته .. أنامله التي طالما لمسها ، فأمدها بالدفء وبادلته الوفاء ... وقد تنوعت أساليب الشعراء في التعبير عن هذه المعاني ، فمثلاً بدر الدين الزيتوني ، الذي احترق قلبه حزنا ، واعتصر كبده ألما بفراق ولده سيف الدين ، يعزّ عليه أن يدخل داره بعد رحيل ابنه عنها ، وأن يمشي على الأرض التي دفن فيها ، هذا ما يصرح به في قوله([1]) :

يعز علي يا ولدي وعيني ويا من فاق بالفضل النبيه
بأن ألج الديار ولست فيها وأن أطأ التراب وأنت فيه

([1]) محمد راغب الطباخ الحلبي 192/5 .

أما محمد بن الشهاب الباعوني فيخاطب ولده الميت متحسراً على ما فات من مسرات الحياة بوجوده مقسماً أن يبكيه بكل جوارحه ، وأن تبكيه عظامه في القبر بعد مماته ، يقول([1]) :

أمحمدا إن كان قد عز اللقا ومضت مسرات الحياة بأسرها
فلأبكينك ما حييت وإن أمت فلتبكينك أعظمي في قبرها

وكذلك رثى عبد الرحمن القلقشندي ولده الذي مات بعلة الطاعون ، متمنيا لو كان في استطاعته فداؤه ، ثم يشيد بصفاته الحسنة التي كان يتحلى بها ، من صدق وتقوى وما إلى ذلك من الصفات الحميدة التي طعن فيها أعداؤه ، يقول([2]) :

لقد مات مطعونا بغير جريمة صديق ولو شاءوا الفدا كنت أفديه
وكان صدوقا للحديث من الصبا تقيا ومع هذا فقد طعنوا فيه

وصف القلقشندي إصابة ولده بالطاعون بالرغم من حذره فيقول([3]) :

أتى الطاعون في سر إلينا ولي ولد وقد وفى بشرطه
تحرز منه خوفا وهو طفل فغافله وجا من تحت إبطه

ولم يتوقف القلقشندي عند هذا الحد ، بل وصف حال ولده لحظة فراقه للحياة وما سار إليه من نعيم مقيم في الجنة ، إذ يقول([4]) :

قد كان ابني سكرا وقد غدا مكفنا
وأنــه مسيّـر لجنة فيها الهنا

وقد يتحدث بعض الشعراء بلسان حال أصدقائهم لحظة توديعهم لأبنائهم الذين تخطفهم الموت ، من ذلك – مثلا – قول الشمس بن عبد الرحيم بلسان حال ابن القطان وهو جالس على قبر ولده عندما دفن([5]) :

يا رب أفلاذ كبدي في الثرى دفنت ونار حرهم في سائري ساري
يا رب واجعل جنان الخلد حظهم ونار بُعدهم حظي من النار

ولمّا بلغ الشَّيْخ أبي إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بن عَليّ بن يُوسُف الفيروزابادي الْقرشِي خبر وفاة حفيده غرقاً في البحر قال([6]) :

([1]) شمس الدين السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 114/7 .
([2]) شمس الدين السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 123/4 .
([3]) السابق 123/4 .
([4]) السابق 123/4.
([5]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 252/9 .
([6]) عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهي السكسكي اليمني : طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهي تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، طبعة مكتبة الإرشاد – صنعاء 296/1 .

صبي كَأَن الْمَوْت رق لأَخذه فلَان لَهُ فِي صُورَة المَاء جَانِبه
أَبى الله أَن أنساه دهري لِأَنَّهُ توفاه فِي المَاء الَّذِي أَنا شَاربه
فَمَا ذقت طعم المَاء إِلَّا وجدته يخاطبني فِي صَفوه وأخاطبه

إلى غير ذلك من نماذج شعر رثاء الأبناء التي حملت مشاعر الآباء إزاء هذا المصاب الجلل والتي رأيناها تعديداً لمناقب الأبناء ممزوجةً بمشاعر الحزن والأسى .

رثاء الآباء والأزواج :

وهما النوعان اللذان اتسما بقلة شواهدهما في أدب ذلك العصر ، حيث لم يحظيا باهتمام كبير لدى شعراء هذا العصر ، أو لربما هناك سبب آخر يتمثل في عدم التفات المؤرخين لذلك النوع من الرثاء ، لذلك لم يصلنا منه إلا القليل من المقطوعات ، ففي رثاء الآباء نذكر رثاء الشاعر إبراهيم الخجندي لوالده بعد أن بلغته وفاته ، الذي وصف فيه حزنه عليه ، وبرر تجلده في البكاء عليه ، يقول([1]) :

إن مات والدي الشفيق فإن لي دمعا يسيل عليه في الوجنات
ولربما كف الحزين دموعه صونا لهمته عن الهفوات
خوف الوقيعة قبل فوت وقوعها فإذا استقرت خيف ما هو آت

وكذلك رثاء التقي بن معيبد والده القاضي شرف الدين أَبُو الْقَاسِم بن عمر بن أبي الْقَاسِم بن معيبد اليشكيري الْأَشْعَرِيّ القحطاني الذي تُوفِّي بِشَهْر شعْبَان سنة 830 وَدفن بالأجيناد بمرثية طويلة يقول في مطلعها([2]) :

قفا فانظرا حَالي فَلَيْسَ لَهُ وصف ...

ومنها قوله :

فآه على تِلْكَ الشَّمَائِل زانها مَعَ الْخلق الْأَسْنَى التَّوَاضُع واللطف
فحلم وَعلم راسخ وَكِتَابَة وَفضل وآداب يزينها ظرف

أما رثاء الأزواج فمنه رثاء الإمام شرف الدين لزوجته فاطمة بنت عبد الله الخمري ، التي أصابتها الأسقام وظلت تعتريها من سنة 895هـ إلى أن توفيت سنة 910هـ ، فقال يرثيها مبينا شدة حزنه ولوعته على فراقها ، هذا الفراق الذي أضرم ألسنة الحزن الحراقة في قلبه([3]):

([1]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 277/5 .

([2]) هذا كل ما أورده صاحب كتاب طبقات صلحاء اليمن ، ولم أعثر على النص في أي مرجع آخر . طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهي 211/1 .

([3]) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 342/2.

هي النفس حنت من شجاها وأنت ففيم تلوم العين إن هي شنت
مراجل حزن في فؤادي أوقدت فمن فيضها تلك الدموع استهلت
وهل ينبغي لي أن أرى اليوم ساليا وفاطمة في باطن اللحد سلت

وبعد أن يبيّن الشاعر أثر تلك المصيبة على نفسه ، ويأسى لمصيرها في باطن الأرض ، يتحدث الشاعر شرف الدين عن فضائلها ومكانتها عنده فيقول([1]) :

عقيلة آل المصطفى الطهر والتي بكل الأمور الصالحات تحلت
فليذة قلبي بل سويداء مهجتي ومطلبي من كل شيء ومنيتي
وما فاطم إلا من الحور أخرجت لنعرف قدر الحور ثمة ردت

رثاء الإخوة :

لا تختلف منزلة الأخ كثيراً عن منزلة الابن في حالة الموت والإحساس بشدة الفقد والألم والحسرة ، فالأخ سندٌ لأخيه ، وعوناً له في السراء والضراء ، فكيف وقد فارقه بعدما سارا في درب واحد ...

لذلك نجد في هذا العصر بعض الأشعار التي قيلت في رثاء الإخوة ، لكنها لا تكاد تتعدى البيت أو البيتين ، وقليلا ما وجدنا قصيدة طويلة ، ومما عثرت عليه في هذا الباب من أبواب الرثاء أذكر – مثلا – قول ابن العراقي في رثاء أخيه إبراهيم بن عبد الرحيم المتوفى سنة 784 هجرية([2]) :

أإبرا هيم كنت لي أنيسا تروح بالحديث لنا نفوسا؟

فلسان حال ابن العراقي يقول فقدناك يا من كنت مؤنسنا عند الوحشة ، ويا من كنت مرفها عن نفوسنا وقت الشدة ، كلمات تبين للقارئ كم هي صعبة لحظات فراق الأخ لأخيه .

أما بوران بنت الشحنة فقد بكت أخويها العفيف الحسين والمحب عبد الباسط بحرقة وأسى ، وألقت اللوم على الموت الذي أضرم النار في فؤادها وأورثها حزناً بعد حزن ، حزناً على فقد أخيها العفيف الحسين ، ثم على فقد أخيها المحب الذي مات غريباً في الشام ، وقد كان

([1]) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 342/2.

([2]) ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم ابن العراقي : الذيل على العبر في أخبار من عبر ، تحقيق صالح مهدي عباس ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1989م ، 534/2 . وأظن أن هذا البيت هو مطلع قصيدة قالها ابن العراقي ، ولكن لم تقع يدي عليها .

حزنها عليه أشدّ لأنه مات غريباً ، وتمنت أنها لو ماتت بعد موت أخيها عفيف الدين قبل أن يأتيها خبر موت أخيها محب الدين ، تقول([1]):

يا بين بالغت في الأشجان والمحن وجُلْتَ فينا بجدٍّ ليس بالحسن
أضرمت نار فؤادي والحشاء معا أوليتني في الورى حزنا على حزن
أغلقت باب علومٍ ثم باب هدى أخذت مني محب الدين من وطني
قد مات في غربةٍ ، والشامُ مسكنُهُ يا ليتني قبل ذا أدرجت في كفني
وقد فقدتُ عفيف الدين وا أسفي فليت بعدَ عفيفِ الدينِ لم أكنِ
قد كان موتُ محب الدين نائبةً وأطولَ حزني لذاك المنظرِ الحسنِ
وأطولَ حزني ووا وجدي ووا أسفي فيمَ الإقامةُ بالشهباء لا سكني

ختمت الشاعرة قصيدتها بالنواح على أخيها الميت في غربته معلنة أن حزنها عليه لن ينتهي ، وأنها لن تبق في حلب بعد هذا الفقد الجلل .

وقالت في قصيدة ترثي فيها المحب وحده ، وقد اشتعل قلبها حزنا عليه ، ونفد صبرها ألما لفراقه ، بعدما حبسته الأرض في ظلماتها ، وقد كان سندا لأخته مطاوعا لأمرها([2]) :

دعوا دمعي بيوم البين يجري فقد ذهب الأسى بجميل صبري
وكيف تصبري وأخي رهين بأرض الشام في ظلمات قبر ؟
فقدت أخي وكان أخي وظهري على الحدثان سماعا لأمري
فإن عجزت عن الندب الغواني بعثت الدمع نظما غير نثر

وقد رثى محمد بن أحمد الشمس الكناني الطوخي القاهري أخا له يدعى أبا الحسن ، وقد شبه فراقه وغيابه عن الأنظار بمغيب الشمس عن الأفق ، هذا المغيب الذي غاب معه السرور وغابت معه المحاسن ، بل وخربت به الأوطان وأصبحت صحراء مقفرة ، يقول([3]):

مذ غاب شخصك عنا يا أبا الحسن غاب السرور ولم ننظر إلى حسن
وأقفرت بعدك الأوطان واندرست وحال حالي مذ درجت في الكفن

أما ابن حجر العسقلاني فقد اعتصر قلبه ألما لفراق أخته شقيقته ست الركب ، التي كانت وفاتها في سنة 798 هجرية ، فنظم مرثية تحسّر فيها على موتها صغيرة ، حيث تركت خلفها صغيرين يتجرعا طعم اليتم ، وذكر العديد من مناقبها وصفاتها ... لقد جمعت مرثيته من

([1]) أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986م ، ص 261 . = در الحبب في تاريخ أعيان حلب 403/1-404.

([2]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 405/1.

([3]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 8/ 240.

الصور الفنية والجمالية الكثير ، فتارة يشبه أخته بشمس الضحى عند الكسوف ، وتارة يشبها بالغصن الذي اجتث أصله ، وتارة يشبها بالبدر المنقل للنوى ، وتارة أخرى يشبها بالجوهرة اليتيمة ، إذ يقول([1]) :

قفا تريا حالا تجلى عن الوصف ... وقوما انظرا شمس الضحى وهي في كسف
وجودا معي فضلا بفيض مدامع ... وإن كان دمع العين يشجى ولا يشفي
ولا عجبا أني أموت تلهفا ... بلى إن أعش من غير لهف فيا لهفي
إلى الله إنا راجعون وحسبنا ... ونعم الوكيل الله ذو المن واللطف
بكيت على تلك الشمائل غالها ... كثيف الثرى بعد التنعم واللطف
بكيت على حلم وعلم وعفة ... تقارن مع عز الهدى هزة الطرف
بكيت الغصن الذي اجتث أصله ... ولم أجن من أزهاره ثمر القطف
بكيت على دينار خد ملكته ... فعاجلني فيه التفرق بالصرف
بكيت على البدر المنقل للنوى ... ولكنه مازال في القلب والطرف
وشمس توارت بالحجاب من الثرى ... وما الشمس تأوي للتراب من العرف
وجوهرة ردت وكانت يتيمة ... إلى صدف من تربها طيب العرف
وظبية أنس نفرت والتفاتها ... لما خلفت عند التفرق من خشف
صغيرين ذاقا فجعة اليتم بعدها ... وذلك حال ليس يحتاج للكشف

ويبين العسقلاني حزنه العميق ، وجرحه الذي لا يندمل ، وصبره الذي نفد بهذا الرحيل ، لقد حاول أن يتماسك لكنه لم يستطع من شدة هول هذه اللحظة ، يقول([2]) :

وقالوا تصبر قلت هيهات إنها ... غزتني بجيش من همومي مصطف
ثبت وقد لاقيت حرب فراقها ... فيا ليت أني قد فررت من الزحف
تقول وقد آن الرحيل وشاهدت ... دواعي فراق لا تدافع بالكف
أتى أمر ربي مرحبا بلقائه ... فسبحان مؤويها من الخلد في كهف
فأين اصطباري بعدها قد فقدته ... كما أن قلبي تولى بلا خلف

ثم يخاطب العسقلاني أخته متسائلاً : هل من سبيل للعودة ؟ وهو يعلم أن الميت لا يعود ، إنها سكنت جنات النعيم ، ولكنه لا يحتمل رحيلها ، فالنار لا تنطفئ في قلبه ، إذ فقد برحيلها خير

([1]) ديوان ابن حجر 223 .
([2]) ديوان ابن حجر 224 .

جليس ، وخير إلف وونيس ، فبات يشق قلبه حزنا عليها ، ويغلق باب أحلامه ، بل وأصبح غريبا برحيلها ووحيدا ، إذ يقول([1]) :

أسيدة الركب الرحيل رأيته فهل من سبيل للقفول ومن عطف
سكنت بجنات النعيم ومهجتي على نار بعد منك ليس لها مطفي
مضيت وخلفت الديار وأهلها بمضيعة والحال أفضت إلى خلف
فقدت بك الأهلين قربى وألفة فأقسمت ما لي بعد بعدك من إلف
وراجعت سهدي والتأسف والأسى وطلق لما أن رحلت الكرى طرفي
وقلبي لا ثوبي عليك شققته وناديت يا أجبال حلمي ألا خفي
وأما أنيني والتوله والبكا يعيدك طرفي بعض ما قد جرى يكفي
توله مهجور وأنه مفرد وذلة مقهور ووحشة مستخف
وإني غريب لو سكنت ببلدتي وإني وحيد لو ركنت إلى ألف

ثم في نهاية مرثيته يترحم العسقلاني على روح شقيقته ، وقد توجه للمولى عز وجل رافعا أكف الضراعة إليه مناجيا إياه بأن يتلطف بحاله ، ويغيثه ويفرّج همه ، ويرحم ضعفه ، يقول([2]) :

سلام وريحان وروح ورحمة عليك من الرحمن ذي الجود والعطف
فقلبي من يوم النوى في تغابن إلى أن أرى في الحشر شخصك في صف
أبعد حياتي أرتجي راحة البقا فيا تعبي إن كان يبطئ بي حتفي
إلهي تداركني بلطف فإنني إذا لم تغثني يا قوي لفي ضعف
إلهي حسبي أنت فارحم تذللي فإني فيما نابني بك أستكفي
وصل على خير الأنام وآله وأصحابه ما اشتاق ناء إلى إلف

أما جلال الدين بن النصيبي فقد رثى والد زوجته الفقيه ابن الشماع المتوفى سنة 863 هجرية بقصيدة لم يصلنا منها سوى المطلع ، حيث يقول في مطلعها معبرا عن وافر حزنه وألمه لفراقه ، مشبها إياه بشمس العلوم التي كانت تنشر نور علمها ومعرفتها للناس ، وفجأة قد كسفت هذه الشمس وغيبت عن الأنظار ، فجعلتها مكفوفة ، يقول([3]):

أخفاك يا شمس العلوم كسوف من بعد فقدك ناظري مكفوف

([1]) ديوان ابن حجر 224 .
([2]) ديوان ابن حجر 224 .
([3]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 143/9 . در الحبب 85/2 . إعلام النبلاء 261/5 .

ثانياً : رثاء الأصدقاء :

حظي الصديق في هذا العصر بمكانة كبيرة ، فهو في منزلة الأخ لدى معظم الشعراء ، وهو الأنيس وقت الوحشة ، والدواء وقت الشدة ، إلى غير ذلك من الصفات والمناقب التي تشتمل عليها القصائد التي رثا فيها شعراء هذا العصر أصدقاءهم ، فمن ذلك مثلا رثاء القَاضِي شرف الدّين أَبُو الْقَاسِم بن عمر بني معيبد لصديقه الفقيه شرف الدين إِسْمَاعِيل بن عبد الْحق بن عَليّ بن عَبَّاس السكْسكِي بمرثاة أَولهَا([1]) :

أياك لَا حرج عَلَيْك وَلَا عتب مَا كنت مرتقبا لهبات الْكتب

وهي كما يقول البريهي صاحب كتاب صلحاء اليمن قصيدة طويلة تزيد على ثلاثين بيتاً ، منها قوله :

بِشرَاك والبشرى لمثلك حَقّهَا شكرا لما أَعْطَاك رَبك أَو وهب([2])

كذلك رثى الفقيه موفق الدّين عَليّ بن مُحَمَّد الأصبحي صديقه الفقيه رضي الدين أَبُو بكر بن مُحَمَّد بن صَالح بن أبي بكر بن عمر الْهَمدَانِي الْمَشْهُور بِابْن الْخياط ، رثاه مع ثلاثة من أَصْحَابه الْفُقَهَاء الَّذين توفوا بذلك الْوَقْت – سنة 801 هجرية – بقصيدة طَوِيلَة مِنْهَا([3]) :

أوغرت يَا زمني صَدْرِي بأَرْبعَة كَانُوا شموس الْهدى فِي ساحة الْيمن
أطفأت فِي جبلة مِصْبَاح ظلمتها وَبدر لَيْلَتهَا الْهَادِي إِلَى السّنَن
قد كَانَ شمسا بهَا تهدى إِلَى سنَن وَكَانَ حصنا بِهِ نأوي من الْفِتَن
وَكَانَ فِي إب كل الْخَيْر مجتمعا بالكاهلي عفيف الدّين ذِي المنن
وَفِي شنين إِمَامًا كَانَ مُجْتَهدا من حل ساحته الفيحاء لم يهن
وَفِي تعز العوادي رَابِعا لَهُم سَاد الورى بالتقى مَعَ حكمه الْحسن
يَا مزنة الجو سحي فَوق أَرْبَعَة إِن الْأَخير يهم بالفقه كالمزن

([1]) طبقات صلحاء اليمن 210/1 .

([2]) يشير الشاعر إلى ما ذكره البريهي عن السكسكي ، قال : "كَانَ رجلا مُبَارَكًا لَهُ مُشَارَكَة بِشَيْء من الْعُلُوم يَتْلُو كتاب الله تَعَالَى بِصَوْت حسن ورتب إِمَامًا بِجَامِع ذِي عدينة بِمَدِينَة تعز وأضيف إِلَيْهِ شَيْء من الْأَسْبَاب ودام على الْحَال المرضي بِالْعبَادَة وَالصِّيَام وَالْقِيَام فَلَمَّا قربت وَفَاته رأى بعض الدرسة بالجامع النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فِي الْمَنَام فَقَالَ لَهُ قل لإسماعيل {ولسوف يعطيك رَبك فترضى} فَقَالَ الدرسي للنَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم من إِسْمَاعِيل الصبري أم غَيره فَقَالَ لَهُ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم هُوَ إِمَام جَامع عدينة فَذهب ذَلِك الدرسي إِلَى الْفَقِيه شرف الدّين يبشره بذلك ففرح وَبكى وَمكث أَيَّامًا قَلَائِل ثمَّ توفّي رَحمَه الله سنة سِتّ وَعشْرين وثمانمئة" . طبقات صلحاء اليمن 210/1 .

([3]) طبقات صلحاء اليمن 120/1 .

تحدث الشاعر عن مصابه في أربعة من أصدقائه الذين أخذهم الموت فذكر اسم كل واحد منهم ومكان إقامته وما اتصف به من صفات العلم والتقوى ، ثم دعا لهم في ختام النص بالسقيا كعادة بعض الشعراء .

ولمّا توفي الفقيه الزاهد عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر الزوقري الْهِلَالِي سنة 810 هجرية رثاه أحد أصدقائه بقصيدة رنانة تحدث فيها عن الجنة التي صار إليها مكرماً ، لأنه كان تقياً متقدماً بحُسن أفعاله على كل أهل الصلاح ، هذا ما نراه في قوله([1]) :

إِلَى رَحْمَة الله انْتَقَلت مكرما وَفِي جنَّة الفردوس صرت مخيما
قدمت على الرَّحْمَن يَا عَبده الَّذِي على كل عبد فِي الصّلاح تقدما

أما الشاعر ابْن روبك فكانت بينه وبين الفقيه جمال الدّين مُحَمَّد بن صَالح الدمتي شحناء ، فلما علم بخبر وفاة جمال الدين سنة 816 هجرية ندم على ما حصل منه وقال قصيدة يعتذر فيها ويرثي بها الْفَقِيه جمال الدّين ، من ذَلِك قوله([2]) :

ولي هفوات فِيهِ بالْأَمْس قلتهَا إِلَى الله قد اصبحت مِنْهُنَّ تَائِبًا
فَإِنِّي فِي مدحي لَك الْيَوْم صَادِق كَمَا كنت فِي ذمِّي لَك الأمس كَاذِبًا
فَقل لِذَوي الْحَاجَات موتوا مجاعَة فقد مَاتَ عَنْكُم من يُمِيت المساغبا

إنه الاعتذار الصادق الذي يجعله يعترف بأن ما قاله عنه وقت الشحناء كان كذباً ، ويقرر أنه صادق فيما ينعاه به من صفات ماجدة منها أنه كان كريماً يقضي حوائج الناس ، ثم نجده يدعو له بحُسن الآخرة ، وأن يكون عند ربه في أعلى مراتب الجنان ، يقول :

فاصبر فَإِن الصَّبْر لِلْأَجرِ جالب فدونكم مَا كَانَ لِلْأَجرِ جالبا
سقى الله مثواه حَيا مُتَتَابِعًا وَأَعْطَاهُ فِي أَعلَى الْجنان مراتبا

ولمّا توفي الشَّيْخ الصَّالح مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أبي الْقَاسِم المزجاجي الصُّوفِي سنة 829 هجرية رثاه بعض الشعراء بقصائد خلدت ما عُرف عنه من صفات التقوى والكرم ، من ذلك([3]):

وَأجل خطب فِي الخطوب مفاجي نعيي الْوَلِيّ الصَّالح المزجاجي
شيخ الشُّيُوخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد كَهْف الصِّفَات وموئل الْمُحْتَاج
مُغنِي الْأَيَامَى واليتامى كَفه بنواله المتفجر الثجاج

ولمّا توفي المقرئ الْعَلامَة شرف الدّين أَبُو الْقَاسِم بن عَليّ بن مُحَمَّد الأصبحي الْوَاعِظ الْمَشْهُور بـ "عِيَاض" – قبل سنة 830 هجرية – رثاه الوزير تقي الدين بن معيبد بقصيدة طويلة أولها([1]):

([1]) طبقات صلحاء اليمن 194/1 ، لم يذكر قائل هذه الأبيات .
([2]) السابق 198/1.
([3]) طبقات صلحاء اليمن 293/1.

تشوقنا الْبَقَاء من العجاب إِذْ الأتراب تنقل للتراب

وفيها يعدد مناقبه وما اتصف به من صفات في حياته ، من ذلك قوله :

فَمن للمسندات وللعوالي من الْأَخْبَار والكلم الْعَذَاب
وَمن ذَا للسؤال وكشف خطب وَمَا لَك لَا تَقول وللجواب
وللطلاب بعد عياضهم فِي الإعاضة بالفوائد والطلاب

وفي سنة 853 هجرية توفي الشيخ أبي الفضل بن حجر ، فرثاه الشهاب الحجازي بقصيدة بدأها ببعض المعاني الحكيمة التي تدور حول حقيقة الحياة والموت ، أولها([2]):

هـي الليـالي خطـوب تعتـري وغيـر فكـم أرتنـا صـروف الحادثـات غيـر
لـم يصـف منهـل عـيش لامـرئ أبـدا إلا وعقبـــه بعـــد الصـــفاء كـــدر
كم كدرت وصفت كم أخلفت ووفت وكـل ذا بقضـاء قـد جـرى وقـدر
فكـم جسـوم بإطبـاق الثـرى بليـت وأوجـه أسـكنت بعـد النعـيم حفـر

ثم يصور حزنه الشديد على فقد الشيخ ابن حجر ، ويأسى لحال الدين والدنيا بعده ، ويسترسل في تعديد مناقبه وصفاته ، الخُلق الكريم والجود وسعة العلم ، والتقوى ، إن الشاعر يرى مجالس العلم حزينة لفقده ، تنوح على ما انقضى من مجالسه العلمية ، وتلاوته للقرآن في جوف الليل ، إن الدنيا بأسرها حزينة عليه ، النجوم والسحب والرياح ... يقول([3]) :

أواه وا لهـف قلبـي اليـوم وا أسـفي وا حسرة الدين والدنيا على ابن حجر
علـــى شـــهاب لـــدين الله كـــان جنـابكم شـمس فضـل قـد خبـت وقمـر
علـى إمـام عليـه الخلـق قاطبـة أثنت وكم قد حكت في الجود عنه سير
فـالعلم مـن بعـده ضـاقت مذاهبـه وضـل فـي حيـرة مـن بعـده وفكـر
مجـالس العلـم مـن حـزن عليـه بكـت فنوحهـا اليـوم ترمـي فـي القلـوب شـذر
وفـي أحاديـث خيـر المرسـلين لـه أعلـى مقـام وإسـناد وحسـن نظـر
مـن للمحـارب زانتهـا تلاوتـه في ظلمة الليل من متن الكتاب سور
فالسـحب أجـرت عليـه اليـوم أدمهـا والـريح تبكـي إذا مـرت عليـه سـحر

([1]) صلحاء اليمن 216/1 .

([2]) موفق الدين أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، المعروف بـ سبط ابن العجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، حلب 1417 هـ ، 221/2 .

([3]) كنوز الذهب في تاريخ حلب2 /221 .

بكــت عليــه نجــوم الليــل ذاكــرة تهجــدا فــي ليــال كلهــن غــرر

ويمزج الشاعر بين الحديث عن النعيم الذي أعده الله لعباده المتقين وبين صفاته التي لأجلها أضحى قبره قصراً للمجد والعلياء ، ثم يستسلم بحسرة وأسى لأن الموت نهاية كل كائن حيّ ، يقول([1]) :

يـا قبـره قـد حويـت المجـد أجمعـه وفيـك جنـة عـدن أزلفـت ونهـر
لله درك مـن قبـر عـلا وسـما أمسـيت للمجـد والعليـاء نعـم قصـر
مـولاي نصـر قضـاة المسـلمين ومـن للعدل قد سل سيفا في الورى وشهر
مقرر على الخلق فقدان لشخصك يا مـن كـان ملجـأهم يومـا لـدفع ضـرر
مـا نـاح ذو شـجن لـيلا علـى فـنن وأومـض البـرق نجـديا ولاح القمـر

ولمّا توفي ضياء الدين أبو المعالي محمد بن القاضي زين الدين أبي حفص عمر ابن النصيبي الشافعي، سنة 857 هـ ، وبلغ خبر وفاته القاضي محب الدين أبو الفضل بن شحنة حزن حزنا عظيما وكتب إلى صهره القاضي زين الدين من قصيدة يرثيه بها([2]):

لقـد ضـحكت ريـاض الأرض لمـا بكـت مـن فوقهـا سـحب السـماء
وقـد فقـد الضـياء فصـار لـيلا نهـار العـز مـن فقـد الضـياء

يعقب أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل ، الشهير بأبي ذر سبط ابن العجمي – صاحب كتاب كنوز الذهب المتوفى 884 هجرية – بقوله : "قلت مضمنا :

ابـن النصـيبي الضـياء لـه الـورى عـدموا وحـزنهم عليـه طويـل
هيهـات لا يـأتي الزمـان بمثلـه إن الزمـان بمثلـه لبخيـل"([3])

وفـي سـنة 832 هجريـة تـوفي الإمَـام شـهَاب الـدّين أَحْمـد بـن مُحَمَّـد الربيعـي الْحِمْيَـرِي الْمَشْهُور بالشلفيُلُوف ، فرثاه التقي بن معيبد بمرثاة طَوِيلَة مِنْهَا([4]):

ذهب الْفَلاح تَتَابَعَت أحزابه وَمضى الصّلاح مَضَت بِهِ أَصْحَابه
لما فَقدنَا أَحْمد بن مُحَمَّد مفتي الْأَنَام تغلقت أبوابه

([1]) كنوز الذهب في تاريخ حلب 222/2 .
([2]) كنوز الذهب في تاريخ حلب 261/2 – 262 .
([3]) كنوز الذهب في تاريخ حلب 262/2 .
([4]) طبقات صلحاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي 214/1 .

ومن رثاء الأصدقاء أيضاً ما أورده صاحب كتاب صلحاء اليمن من شعر عبد الله بن دَاوُد بن مَنْصُور في رثاء الفَقِيه الْعَلامَة شرف الدّين قَاسم بن عمر الدمتي ، قَالَ([1]) :

موت الْأَئِمَّة ثلمة الْإِسْلَام لَا ثلمة تطرا كموت إِمَام
فَإِذا سَمِعت بِمَوْت حبر فابكه وابك الْأَنَام ونح على الْإِسْلَام

وهي قصيدة سيارة خلدت ذكر الفقيه الدمتي وما عُرف عنه من صفات العلم والتقوى ، ومنها قوله :

أَو مَا ترى الْآفَاق كَيفَ تكدرت لما قضى لإمامنا بحِمام
قَاسم حزت الْعلم ثمَّ قسمته فجزاك رَبك أوفر الْأَقْسَام([2])

وكذلك ما نجده عند إبراهيم بن يوسف الحلبي في رثائه لصديقه العالم عبد الباسط بن محمد ابن الشحنة ، الذي توفي سنة 903 هجرية ، حيث ألقى بكافة لومه وعتابه على الزمان الذي كوى قلبه ألما وحزنا لفراق صديقه الذي طالما عرف عنه الذكر الحسن ، والأخلاق الحميدة، كيف لا وهو العالم ذي الهمة العلياء والعقل الواسع الحكيم والنفس المتواضعة ، ما جعله يأسر قلوب المحبين جميعا فاستحال عليهم نسيانه ، يقول([3]) :

جار الزمان وقد رمى بمصاب قلبا كوته فرقة الأحباب
وسطا على جسد كسته لوعة الأحزان أثوابا وأي ثياب
وبراه بالأسقام حتى إنه ليسود لو يمسي ضجيج تراب
وإني على روح تود ذهابها لو كان مأذونا لها بذهاب
وأصابنا بمصيبة هي موت من تروي محاسنه أولو الألباب
العالم النحرير عبد الباسط بن الشحنة الحنفي ذي الآداب
ذي الهمة العلياء والنفس التي شرفت فكانت فوق ظهر سحاب
من كان كهنا واثقا بمحبة متمسكا بالأهل والأصحاب
وهو الذي ملك القلوب بأسرها بتواضع منه وحسن خطاب
يا قلب إن تنساه يوما كاملا تبلى بوخز مهند وحراب

([1]) طبقات صلحاء اليمن 214/1 .

([2]) وفي رواية أخرى : يا قاسمِ حزت العلوم جميعها فجزاك ربي أوفر الأقسام
الانترنيت : الموسوعة الأدبية الشاملة

([3]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 737/1.

ثم يوجه الحلبي خطابه للدهر وقد عاتبه عتابا شديدا ، وحملّه كامل المسئولية ، ورماه بالخيانة لأنه السبب في تفريق شمل الأحبة ، كما ودعا عليه بدعوات عاصفة بنفس مشحونة بالشجون ، بينما دعا لصديقه بالرحمة والغفران ولأهله بالصبر والسلوان ، فقال([1]) :

وأبكيه يا عيني دما مع من بكى ... من أهله والصحب والأتراب
وادعي على دهر أراك فراقه ... بفراقه للصحب والأحباب
يا دهر ما كان الفراق بخاطري ... كلا ولا كان النوى بحساب
خربت ربعا عامرا يا دهرنا ... بليت ربوعك دهرنا بخراب
يا دهر قد جرعتني بفراقه ... كأسا بها خطئي أزاح صوابي
يا دهر ما كان المؤمل منك ذا ... قد خننتا ورميتنا بمصاب
يا رب دهرا ضرنا جرعه من ... فقد الذي يهوى أمر شراب
واخصص زمانا قد رمانا بالنوى ... بشتات شمل مع أليم عذاب
وارحم فتى بجوار عفوك نازلا ... يرجو رضاك كذا جزيل ثواب
واغفر خطاياه وصبر أهله ... بمحمد والآل والأصحاب

يلاحظ إكثار الحلبي من استخدام أسلوب النداء في قصيدته السابقة ، فتارة نجده ينادي الدهر ، وتارة أخرى يناجي ربه ملتجئا إليه ، وقد شكى له شدة ما جرعهم الدهر من مرارة فقد ابن الشحنة ، وكل ذلك يدل على هول المصاب والحزن العميق في النفس الضعيفة .

كذلك يتأسف عبد الرحمن بن أبي الوفا لفقدان صديقا له طالما ساانده في سرائه وضرائه وشاركه لحظاته بحلوها ومرها ، إذ يقول في رثائه([2]) :

مضت قامة كانت أليفة مضجعي ... فلله ألحاظ لها ومراشف
ولله أصداغ حكين عقاربا ... فهن على الحكم المضي سوالف
وما كنت أخشى أمس إلا من الجفا ... وإني على ذاك الجفا اليوم آسف
رعى الله أياما وناسا عهدتهم ... جيادا ولكن الليالي صيارفا

هذا ومن القصائد التي لم يصلنا منها سوى مطلعها القصيدة التي قيلت في رثاء موسى الخالدي الذي توفي سنة 829 هجرية ، إذ نظم بعض الأصدقاء قصيدة يرثيه بها مطلعها([3]):

قد أظلم الجو بعد الضوء والصدف ... بموت موسى بن عيسى صاحب الخلف

([1]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 737/1 .
([2]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 59/4 .
([3]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 188/10 .

أما محمد بن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور فيجعل آلات الموسيقى تنوح حزنا على فقد المغني المنشد نور الدين بن رحاب الذي توفي سنة 905 هجرية ، إنها تراوح بين الصراخ والنحيب ، بل وأضحى الناس في قلق ، وضاقت الدنيا بأكملها لرحيله ، هذا ما نراه في قوله([1]) :

توفى نزهة الأسماع طرا وصار العيش منا في ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأبدى الدف والماصول زعقا كمن جاء المآتم في المصاب
وأضحى الناس في قلق ولم لا وقد ضاق الوجود بلا رحاب

وكذلك يرثي الشهاب المنصوري صديقه المغني أستاذ فن الإنشاد ناصر الدين محمد المازوني القاهري التي كانت وفاته سنة 862 هجرية ، حيث كان يروح عن النفوس ضيقها وهمها ، ويطرب الناس بما يشدو به من كلمات رنانة تشد الأسماع وتبهج القلوب فرحا ، حيث يقول المنصوري في رثائه متحسرا عليه وقد خاطبه([2]) :

يا نزهة السمع سكنت الثرى فللملاهي أيما لهفي
كم لطمة من قدم أو يد في خدي الدكة والدف

وقد انعدمت بعد المازوني اللذات ، وارتفعت لموته الأصوات ، يقول المنصوري([3]):

كانت به لذاتنا موصولة فانقطعت بموته اللذات
وكانت الأصوات تزهو بهجة فارتفعت لموته الأصوات

أما علي بن محمد فمن شدة حزنه قد شبه الصبر بشخص يفارقه ، ويشبه الحزن والبكاء بشخص ملاصق له وذلك في رثائه لصديقين له ، وكان يجالسهما في يوم الثلاثاء ، واتفق موتهما في يوم الأحد ، أما يوم الاثنين فيجعله من الألفاظ المشتركة التي تشير إلى صديقيه معاً، كما تشير إلى يوم الاثنين ، إذ يقول فيهما([4]) :

على الأديب الحريري والأديب الزين فارقت صبري ورافقت البكا والحين
يوم الثلاثا بهم كانت تقر العين فارقتهم في الأحد وانصبت في الاثنين

وقد اعتاد الشعراء الدعاء لموتاهم بالسقيا التي يقصدون بها المغفرة ، وقد رأينا شواهد هذا الدعاء في خواتيم قصائدهم ، أما الشاعر محمد بن علي الزحيف فيجعل الدعاء بالسقيا في

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 3/ 435 .
([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 2/ 346 .
([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 2/ 346 .
([4]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 984/1.

ومفتتح قصيدته التي يرثي فيها صديقه عبد الله بن أبي القاسم بن مفتاح ، المتوفى في سنة 877 هجرية ، يقول([1]):

سقى جدثا أضحى بصنعاء ثاويا من الدلو والجوزاء غاد ورايح

أما صديقه يحيى بن محمد بن صالح حنش فإن شدة حزنه على موت ابن مفتاح جعلته يصدّر قصيدته بعبارات تصور مدى حزنه وأثر فقده على قلبه ، يقول([2]):

أما عليك فقلبي دائم الفزع وكيف أسلو ووجدي غير منقطع

أما ابن الشحنة فقد أسقط حزنه على عناصر الطبيعة في رثاء صديقه محمد بن عمر النصيبي الذي توفي سنة 857 هجرية ، فقال([3]) :

لقد ضحكت رياض الأرض لما بكت من فوقها سحب السماء

وقد فقد الضياء فصار ليلا نهار العز من فقد الضياء

إنه يجعل السحب إنساناً له عواطف جياشة تنهمل دموعها ألما وحزنا لفراق صديقه النصيبي ، ويجعل صديقه ضوءاً ينير نهار العز ، ولمّا فُقِد هذا الضياء حلت محله عتمة الليل .

وقد كان الشاعر الفقيه محمد بن عمر بحرق([4]) صديقاً محباً لآل العيدروس في اليمن ، اهتم لأمرهم ، فتابع أفراحهم وأتراحهم في العديد من القصائد والمقطوعات ، من ذلك مثلاً ابتهاجه بالشيخ أحمد بن الشيخ أبي بكر العيدروس الذي اشتهر بكرمه وصفاته الماجدة ، حيث يرى أن هذه الصفات أصيلة فيه موروثة عن جدوده ، يقول([5]) :

أصل السيادة لا ينتمي إلى حد إلا هو السيد

لئن شاركته بنو العيدروس بفخر هو الشمس لا يجحد

فقد خصه الله من بينهم بآيات مجد له تشهد

حوى سر جديه من أمه فطاب له الفرع والمحتد

([1]) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 272/1 .

([2]) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 272/1 .

([3]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 251/5 .

([4]) هو العلامة الفقيه محمد بن عمر بحرق ، كان مولده بحضرموت في ليلة النصف من شعبان سنة 869هـ ، وتوفي سنة 930هـ .

([5]) محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1405هـ ، ص 99 . وقد أورد صاحب شذرات الذهب أبياتاً منها ، انظر : شذرات الذهب 26/8 .

فهو كما يقول صاحب كتاب النور السافر عن أخبار القرن العاشر : "الوارث لأبيه وجده وحامل الراية من بعده وولي عهده ، فقد قام بالمقام أتم قيام ، ونهض بما نهض به آباؤه الكرام ، فساد وجاد ، بني معاقل المجد وشاد ، وأحي الرواتب التي أسسها أبوه والأوراد ، وواظب على إطعام الطعام وصلة الأرحام والإحسان إلى الفقراء والأيتام باذلا جاهه وماله في إيصال النفع إلى أهل الإسلام ... وكان في مدة أيامه السعيدة وطول حياته العزيزة الحميدة مجريا النفقة التامة الوافرة والكسوة الفاخرة لمن كان أبوه مجريا له من زوجة وخادمة ونحوها قائما بكفاية الفقراء نفقه وكساء صيفا وشتاء . .. قال الراوي فعجبت فقلت : ما كان بعدن إذ ذاك سائل قالوا : لا ما كان في زمن الشيخ أبي بكر وولده الشيخ أحمد يوجد في عدن سائل أصلا"([1]) .

أما الشاعر تَقِيّ الدّين عمر بن أبي الْقَاسِم بن معيبد فيعلن سخطه على الدنيا بعد أن قرر أنها ليست بدار قرار ، ويبرر سخطه عليها بأن يد المنون تبطش بالخلائق ، وتفني القرون، ولأنها أفنت صديقه الفقيه عفيف الدّين عَطِيَّة بن عبد الرَّزَّاق بن عَليّ النجدي سنة 888 هجرية، يقول([2]) :

مَـــا هَـــذِه الـــدُّنْيَا بـــدار قَـــرَار ... ســـحقا لَهَـــا بعـــدا لَهَـــا مـــن دَار
أومـــا رَأَيْـــت يَـــد الْمنـــون وبطشـــها ... تفنـــي الْقُـــرُون بســـيفها البتـــار
مثـــل الإِمَـــام ابْـــن الْكِـــرَام عَطِيَّـــة ... السَّـــيِّد الْمَشْـــهُور بالأقطـــار

لذلك لما توفي الشيخ أحمد بن الشيخ أبي بكر العيدروس بعدن سنة 922 هجرية ، وعمره يومئذ أربعون سنة تقريبا ، رثاه الشاعر محمد بن عمر بحرق بقصيدة سيارة ، تظهر مدى الحب والتقدير الذي كان بينهما ، ومدى الحزن على فقده ، قال فيها([3]) :

لمـــن تبنـــى مشـــيدات القصـــور ... وأيـــام الحيـــاة إلـــى قصـــور
وحتـــى م التهالـــك والتفـــاني ... علـــى الخداعـــة الـــدنيا الغـــرور
فمـــا يغتـــر بالـــدنيا لبيـــب ... ولـــو أبـــدت لـــه وجـــه الســـرور
فغايـــة صـــفوها كـــدر وأقصـــى ... حلاوتهـــا إلـــى الكـــأس المريـــر
ألـــم تـــر كيـــف هـــدت ركـــن مجـــد ... وفاضـــت بحـــر مكرمـــة زخـــور

لقد بدأ الشاعر مرثيته بتوجيه النصح للناس كافة بألا تشغلهم الدنيا ونعيمها الزائل ، فإن اللبيب لا يغتر بالدنيا وإن كانت حياته هانئة ، لأن نعيمها لا محالة زائل ، ويدلل على ذلك بما

([1]) النور السافر 99 .
([2]) طبقات صلحاء اليمن 125/1 .
([3]) النور السافر 100 .

أصاب أل العيدروس من مصائب جسام ، حيث أخذتهم يد المنون واحداً تلو الآخر بالرغم من كل مآثرهم . ثم يعدد بحرق مناقب آل العيدروس متأسفاً على ما ذهب من صفاتهم فيقول :

وروعـــت الأنـــام بفقـــد شـــخص	رزيتـــــه علـــــى بشـــــر كثيـــــر
شـــهاب ثاقـــب مـــن نـــور بـــدر	تبقـــــى شـــــموس مـــــن بـــــدور
نمـــاه العيـــدروس وكـــل قطـــب	غيـــــاث للـــــورى فـــــرد شـــــهير
تنـــاثر عقـــدهم نجمـــا فنجمـــا	تغيـــب تحـــت أطبـــاق الصـــخور
فـــأظلم بعـــدهم دســـت المعـــالي	وأكســـف قطـــرهم بعـــد الزهـــور
فـــوا أســـفا علـــى أطـــواد حلـــم	إذا أستشـــكلت ملمـــات الأمـــور
وواحزنـــا علـــى تيـــار جـــود	يمـــد بصـــيب الغيـــث الغزيـــر
ويـــا لهفـــا علـــى أخـــلاق لطـــف	يفـوق الزهـر فـي الـروض النضـير
لـــئن ذهبـــوا فقـــد أبقـــوا فخـــارا	يضـــيق لحصـــره صـــدر الســـطور
ففـــاقوا النـــاس أحيـــاء وفاقـــت	ضـــرايحهم علـــى أهـــل القبـــور
فـــلا يـــأتي الزمـــان لهـــم بمثـــل	وهـل للشـمس ويحـك مـن نظيـر

وبعد أن يعدد الشاعر محمد بن عمر بحرق صفات آل العيدروس ، ويقرر أن الزمان لن يجود بمثلهم ، يختم مرثيته بالدعاء لهم ، وبأن يكون له عوناً وأن يصبره على فقدهم ، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى من والاه ، يقول([1]) :

علـــى تلـــك الوجـــوه ســـلام رب	رحـــيم غـــافر بـــر شـــكور
إلهـــى كـــن لنـــا خلفـــا وذخـــرا	فانـــك جـــابر العظـــم الكســـير
وصـــل علـــى أجـــل الخلـــق قـــدرا	محمـــد البشـــير لنـــا النـــذير
ومـــن والاه مـــن آل وصـــحب	علـــى مـــر الأصـــايل والبكـــور

وهكذا نلاحظ أن المعاني متقاربة في شعر الرثاء عند جميع الشعراء ، وربما في جميع عصور الأدب ، وذلك لأن إحساس النفس الإنسانية بمصيبة الموت لا تشوبه مطامع الدنيا وما يصاحبها من رياء ونفاق أحياناً ، فهو حتى في رثاء الأصدقاء ينطوي على قدر كبير من صدق الإحساس بهذه المصيبة .

إن جميع شعراء الرثاء في هذا العصر تحدثوا عن مصيبة الموت وأثرها في نفوسهم سواء كان الميت قريباً أو صديقاً ، وإن كانت العواطف أقوى والحزن أشد عند رثاء قريب أو صديق حميم ، فصدق مشاعر الحسرة والأسى يبدو جلياً ، والتعبير بشتى المعاني عن انفطار القلوب ، وسكب الدموع أكثر وضوحاً ... وفي معظم الحالات رأينا استسلام الشعراء لقضاء الله

([1]) النور السافر 100 – 101 .

وقدره ، وتدبر حقيقة الحياة والموت أحياناً ، واستخلاص العظات والعبر ، كذلك ذكر مناقب الميت وما عُرف من صفاته الكريمة ، وورعه وتقواه ، وفي ختام كثير من النصوص رأينا الشعراء يدعون للميت بالرحمة والمغفرة .

كذلك لاحظنا قصر ما وصلنا من قصائد الرثاء ، خاصة رثاء الأصدقاء ، وأحياناً لم يصلنا إلا مطالع القصائد ، ولعل السبب في ذلك يعود لأصحاب كتب السير والتراجم ، كما هو الحال في إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، وكتاب طبقات صلحاء اليمن الذي وجدت مؤلفه يقول في العديد من المواطن بعد أن يذكر صدر القصيدة "وَهِي طَوِيلَة تركتهَا اختصارا"([1]) ، وفي مقام آخر يقول : "وَهِي طَوِيلَة تزيد على ثَلَاثِينَ بَيْتا"([2]) ، ولأن غاية هذا المؤلف هي الترجمة لصلحاء اليمن وجدناه لايهتم أحياناً بذكر اسم قائل القصيدة .

([1]) طبقات صلحاء اليمن 214/1 .

([2]) طبقات صلحاء اليمن 210/1 .

الفصل الثالث

في ميزان النقد

الظواهر اللغوية والأسلوبية :

تعد اللغة والأسلوب روح القصيدة الأدبية ، بل هما المادة الأساسية اللازمة في بنائها ولذلك فالعلاقة بينهما علاقة مترابطة ، ذلك أن غياب أحدهما يؤثر سلبا على بنية القصيدة الأمر الذي يشعر القارئ بوجود خلل ما في بنيتها ، لذا فالشاعر الناجح هو من ينتقي لقصيدته لغة سهلة وألفاظا مألوفة بعيدا عن غريب المعاني ، كما ويجب عليه الملائمة بين الألفاظ والمعاني ، وفي ذلك يقول ابن رشيق : "اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسد ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته"([1]) .

كذلك على الشاعر أن يستخدم أسلوبا مميزا يترك فيه بصماته على أعماله الأدبية ليتذوق القارئ حلاوته بحيث يحكم عليه في النهاية حكما إيجابيا ، لذا فلكل شاعر من الشعراء لغته الخاصة وأسلوبه الذي يميزه عن غيره بما ينتقيه من معان ويختاره من ألفاظ ، بحيث يظهر ذلك الأسلوب للقارئ واضحا جليا من خلال تلك المعاني المنتقاة والألفاظ المجتباة ، حيث لا بد لأسلوب الكاتب أو الشاعر أن يختلف بحسب المقام ، فلكل مقام مقال ، فمثلا إن كان الموضوع الذي يتناوله الشاعر في قصيدته هجائيا فعليه أن يختار له لغة تختلف تماما عن لغة المدح أو الرثاء ، ذلك أن لكل منهم لغته الخاصة التي لابد أن يكتب فيها ، فمثلا الهجاء يتناسب معه اللفظ القاسي ، بخلاف كل من المدح والرثاء والغزل فهي فنون تحتاج إلى لغة سهلة رقيقة ... ولكن ما هو الأسلوب ، وما هي الخصائص الأسلوبية التي لجأ إليها شعراء هذا العصر في أشعارهم الرثائية ؟

مفهوم الأسلوب :

الأسلوب في اللغة : السطر من النخيل وكل طريق ممتد ، والأسلوب : الطريق والوجه والمذهب، والجمع أساليب([2]) .

أما الأسلوب اصطلاحا : فقد عُرِّف بتعريفات متعددة ، ولكنها – على كثرتها وتنوعها – تتقارب في مدلولاتها ، ومن ذلك :

– أن الأسلوب هو : طريقة الأداء ، أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه، أو لنقله إلى سواه بهذه العبارات اللغوية ، أو هو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني([3]) .

([1]) ابن رشيق القيرواني : العمدة ، 124/1 .

([2]) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ط1 ، دار صادر ، بيروت 2000م ، مادة "سلب" ، 225/7.

([3]) ينظر : أحمد الشايب : الأسلوب ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية 1966م ، ص44 .

- الأسلوب : هو الوسيلة اللازمة لنقل أو إظهار ما في نفس الأديب من معان([1]) .
- الأسلوب : دلالة على منحى محدد في هذا النشاط أو ذاك ، يحمل قواعد وخصائص تميزه عن غيره([2]) .

مما سبق نخلص إلى أن الأسلوب : هو الطريقة التي يمتاز فيها كل شاعر عن غيره بما يختاره من ألفاظ وينتقيه من كلمات .

أما في الحديث عن **الخصائص الأسلوبية** ، فقد تعددت وتنوعت السمات التركيبية والظواهر الفنية التي استخدمها ووظفها شعراء العصر المملوكي الثاني في أشعارهم الرثائية ، فتارة نلاحظ استخدامهم لظاهرة التكرار ، وتارة أخرى يستخدمون أسلوب النداء والمخاطبة بشكل مكثف ، وتارة ثالثة يوظفون في أشعارهم أسلوب الحوار ، وغير ذلك من الأساليب ، فمن أبرز هذه الأساليب والظواهر :

1- التكرار :

هو ظاهرة يكون فيها تكرار المفردة الواحدة أكثر من مرة ، وذلك لدلالة مقصودة ، وقد أكثر شعراء هذا العصر من استخدامها في مرثياتهم ، ليؤكدوا عمق الحزن في نفوسهم ، وليكشفوا حجم الألم الذي يعتصر قلوبهم تجاه من فقدوهم ، ومن ذلك ما جاء في قول الدبيع في رثاء الملك عامر بن طاهر وهو ملك من ملوك اليمن([3]) :

أخلاي ضاع الذين من بعد عامر وبعد أخيه أعدل الناس في الناس
فمذ فقد والله والله إننا من الأمن والإيناس في غاية الياس

فقد كرر لفظ الناس مرتين ، كما وكرر لفظ الجلالة في قسمه مرتين ، ليؤكد بذلك التكرار على شدة اللوعة والحزن لفقد مثل هذا الملك .

وفي السياق نفسه يقول الأزهري في رثائه لابن الشحنة([4]) :

والله ، والله العظيم ليس لي بعد محمد سواه ثاني
أبكي بكا الخنا عليه مثلما بكى متمم مدى الأزمان([5])

([1]) الأسلوب 12 .

([2]) ينظر: عدنان على رضا النحوي : الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام ، الطبعة الأولى ، دار النحوي للنشر والتوزيع 1999م ، ص71 .

([3]) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 216/1 .

([4]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 1/ 124-125.

([5]) يشير إلى بكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك .

حيث تكرر في الأبيات السابقة لفظ الجلالة "والله والله" تأكيداً على صدقه في القسم ، كما تكرر لفظ البكاء "أبكي ، بكا ، بكى" مماهاة لحالة الحزن الشديد التي يكابدها .

ومنه ما جاء في قول أحد الشعراء في رثاء ابن النصيبي([1]) :

عمرت مكانا في حياتك سالما وعمرته من بعد موتك يا عمر
وعمرت بالأحزان للأهل أربعا ولكن ربع الصبر من بعدك اندثر

فكرر لفظ "عمرت" ثلاث مرات ، ليؤكد على شدة تأثير المرثو حيّاً وميتاً .

ويقول الشرف بن المقرئ في رثائه لإسماعيل اليماني([2]) :

وما موت إسماعيل موت مجاور إذا مات أبكى ابنا وأوحش منزلا
ولكنه موت رمى كل منزل بما أرمل الناشين فيه وأثكلا

فتكرر لفظ الموت في الأبيات السابقة أربع مرات ، ليؤكد بذلك أن موته ليس كأي موت ، إنما هو وقعة أليمة حفرت على صخرة الجراح .

ومنه قول الشهاب الحجازي في رثائه لابن الكماخي([3]) :

من رحمة الله فلا تيأسن إن كنت في العالم ذا مرحمه
فمن يكن في الناس ذا رحمة حق على الرحمن أن يرحمه

حيث كثر في الأبيات السابقة ذكر لفظ "الرحمة" ومشتقاته تأكيداً على ثقته بحظوة الميت برحمة ربه .

كذلك ما جاء في قول العسقلاني في رثائه للبلقيني([4]) :

ولم يخص ببشر منه ذا نشب بل عمهم فضله بالبشر والبشر
لقد أقام منار الدين متضحا سراجه فأضاء الكون للبشر

لقد كرر العسقلاني لفظ بشر بعدة صور ، منها الصفة التي تتصل باسم الميت ، تأكيداً على صفة الاستبشار ، ومنها ما اتصل بالجناس وما يحققه من جرس موسيقي .

هذا وقد يأتي التكرار في القصيدة الرثائية متخذا شكلا أفقيا ، وذلك كما جاء في قول السيوطي في رثائه للشمسني([5]) :

رزء عظيم به تستزل العبر وحادث جل فيه الخطب والغير

([1]) محمد راغب الطباخ الحلبي : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 344/5 .

([2]) الضوء اللامع 280/2-281 .

([3]) الضوء اللامع لأهل 161/1.

([4]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 192 .

([5]) السيوطي : حسن المحاضرة 282-283 .

رزء مصاب جميع المسلمين به وقلبهم منه مكلوم ومنكسر
رزية عظمت بالمسلمين وقد عمت وطمت فما للقلب مصطبر

حيث جاء التكرار في الأبيات السابقة تكرارا أفقيا ، فقد تكررت كلمة "رزء" أكثر من مرة ليخرج السيوطي بذلك التكرار إلى بيان حجم المصيبة التي حلت بهم بموت الشمسني .

ومنه قول ابن أبي حجلة في رثائه للشيخ أكمل الدين محمد([1]) :

شيخ إلى سبل الرشاد ملك وسبيله في العلم ما لا يجهل
شيخ تبحر في العلوم فمن رأى بحرا يسوغ لوارديه المنهل
شيخ عليه من المهابة رونق كالبدر لكن وجهه متهلل
شيخ تقدم في العلوم لأنه إن عد أرباب الفضائل أول
شيخ بحسن بيانه وشروحه ما بات بالمفتاح باب مقفل

لقد ورد التكرار في الأبيات السابقة بشكل أفقي أيضا ، حيث تكررت كلمة شيخ خمس مرات على التوالي ، ليؤكد ابن أبي حجلة بذلك التكرار – إلى جانب قوة الجرس الموسيقي – على عظمة هذا الشيخ ومكانته العلمية المرموقة وصفاته الحميدة التي تحلى بها ، فباتت سيرته العطرة مثلا سائرا يتناقله الناس فيما بينهم وبات رحيله ذكرى محفورة في أفق الذاكرة .

ومنه ما جاء في قول العسقلاني في رثائه لأخته([2]) :

بكيت على تلك الشمائل غالها كثيف الثرى بعد التنعم واللطف
بكيت على حلم وعلم وعفة تقارن مع عز الهدى هزة الطرف
بكيت الغصن الذي اجتث أصله ولم أجن من أزهاره ثمر القطف
بكيت على دينار خد ملكته فعاجلني فيه التفرق بالصرف
بكيت على البدر المنقل للنوى ولكنه مازال في القلب والطرف

أيضا ورد التكرار هاهنا بشكل أفقي متتالي ، ولو رسمنا تصويرا لذلك فسيكون كالتالي : بكيت + بكيت + بكيت + بكيت = لوعة الحزن وقمة الأسى .

ومنه قول إبراهيم الحلبي في رثائه لابن الشحنة([3]) :

يا دهر ما كان المؤمل منك ذا قد خنتنا ورميتنا بمصاب
يا دهر قد جرعتني بفراقه كأسا بها خطئي أزاح صوابي

([1]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 352/1 .

([2]) ديوان ابن حجر ، تحقيق فردوس نور علي حسين ، دار الفضيلة للنشر 223 – 224 .

([3]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب ، الجزء الأول ، القسم الثاني ، تحقيق محمود حمد الفاخوري، ويحيى زكريا عبارة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1972 ، ص737.

يا دهر ما كان الفراق بخاطري كلا ولا كان النوى بحساب

فهو يكرر أداة النداء "يا" ، ولفظة "دهر" ثلاث مرات ، ليؤكد بتكرارها على شدة لومه وعتابه للدهر الذي كان سببا في الفراق .

وقد أكثر شعراء هذا العصر في مراثيهم من تلهفهم على موتاهم ، فكرروا بذلك ألفاظ الحزن واللهفة أكثر من مرة ، ليؤكدوا بذلك على عمق الجرح الذي أصاب قلوبهم بوفاة محبيهم ، فمن ذلك مثلا تكرار الشهاب الحجازي في رثائه للعسقلاني لفظة "لهفي" ، حيث كررها خمس مرات متتالية ، لينقلنا الحجازي بذلك إلى صورة غاية في اللوعة والحزن ، إذ يقول([1]) :

لهفي عليه عالم بوفاته درست دروس والمدارس دائرة
لهفي على الأملاك عطل بعده ومعاهد الأسماع إذ هي شاغرة
لهفي على علم العروض تقطعت أسبابه بفواصل متغايرة
لهفي على التقصير مني حيث لم أملا النواحي بالنواح مبادرة
لهفي على النحو الذي سهله يغني اللبيب يساعد المذاكرة

ومنه قول محمد بن إياس في رثائه للأمير تاني بك فرا ، وقد أكثر التلهف عليه([2]) :

لهفي عليه من أمير صارم في يوم حرب للعداة مدمرا
يا لهف قلبي قد تجرع فقده وتجددت أحزانه بين الورى
يا لهف قلبي كم أمير كان في عز وجاه فانطوى تحت الثرى

هذا ومن الشعراء من كرر لفظ التلهف في مرثيته على مستوى البيت الواحد ، وذلك كما جاء في قول العسقلاني في رثائه لأخته([3]) :

ولا عجبا أني أموت تلهفا بلى إن أعش من غير لهف فيا لهفي

ومما قد يتصل بظاهرة التكرار القول بأن لفظ التلهف من أكثر الألفاظ دوراناً في شعر الرثاء ، وشواهد ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قول الشاعر عيسى بن حجاج في رثائه لمحمد بن يوسف([4]) :

لهفي على قاضي القضاة محمد إلف العلوم الفارس الركراكي

([1]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 215-216 .

([2]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 430/3-431.

([3]) ديوان ابن حجر 223 – 224 .

([4]) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، طبعة القاهرة 1969م ، 430/1.

وقول الأزهري في رثاء ابن الشحنة([1]) :

لهفـــي علـــى ركـــن مـــن الأركـــان قاضـــي القضـــاة وســـيد الأعيـــان

وكذلك قول الشهاب المنصوري في رثاء الستة الشهب([2]) :

لهفـــي علـــيهم إذ التـــذ الســـماع ممـــا أهـــدوا إليـــه التـــذاذ الـــذوق بالضـــرب

وأيضا قول المنصوري في رثاء الحجازي : ([3])

لهـف قلبـي علـى أفـول الشـهاب تحفـة القـوم ونزهـة الأصـحاب

ومما سبق نخلص إلى أن شعراء هذا العصر قد كثر التكرار في مرثياتهم ، سواء على صعيد البيت الواحد أو الأبيات المتتابعة ، وذلك إن دل فإنما يدل على النفس المشحونة بالحزن والألم .

2- الحوار :

وهو ذلك الأسلوب الذي يتخذ فيه الشاعر النص مسرحا للأحداث ، فيصور أحزانه وآلامه وما حل به من مصائب ، وتصبره على مثل تلك البلايا والرزايا ، فهذا العسقلاني يحاور الناس الذين طلبوا منه الصبر على موت شقيقته ، فيجيبهم بصعوبة ذلك الأمر لشدة المصيبة عليه ، ثم يصف رد أخته وقد حل بها القدر وسلمت لأمر ربها ، يقول([4]) :

وقالوا تصبر قلت هيهات إنها غزتني بجيش من همومي مصطف
ثبت وقد لاقيت حرب فراقها فيا ليت أني قد فررت من الزحف
تقول وقد آن الرحيل وشاهدت دواعي فراق لا تدافع بالكف
أتى أمر ربي مرحبا بلقائه فسبحان مؤويها من الخلد في كهف

كأننا أمام مشهد مسرحي تتحاور فيه الشخصيات ، وتعبر عن مواقفها ومشاعرها إزاء مصيبة الموت ، فالشاعر جزع لا يتحمل فقد أخته بالرغم من تذكير الناس له بضرورة الصبر على الشدائد ، بينما نجد أخته تعلن الاستسلام لقضاء الله وقدره .

ومما يُمثِّل الحوار أيضا ما جاء في قول الشهاب المنصوري في رثاء الشريف بركات([5]):

قـالوا قضـى بركـات قلـت فحـق لـي أن اتبـــع العبـــرات بـــالزفرات

([1]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 1/124-125 .

([2]) بدائع الزهور في وقائع 3/58-59 .

([3]) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة 1/574 .

([4]) ديوان ابن حجر 223 – 224 .

([5]) جلال الدين السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان 100.

يـــا ترحـــة الأحيـــاء عنـــد فراقـــه وبقربـــــه يـــــا فرحـــــة الأمـــــوات
والكعبـــة الغـــراء قالـــت قـــد غـــدا لـــيس الحـــداد عليـــه مـــن عـــاداتي
فـــانظر إلـــى آثـــاره فـــي مكـــة فرحابهـــا لـــم تخـــل مـــن بركـــات

إلى غير ذلك من النماذج التي تظهر ميل بعض الشعراء إلى استخدام تقانة الحوار ، والإفادة من عنصر التشويق الذي تختص به القصة .

3- الاستفهام :

هو الاستيضاح عمَّا هو مجهول ، أو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بوساطة إحدى أدوات الاستفهام المعروفة([1]) ، حيث أكثر شعراء هذا العصر في مرثياتهم من لجوئهم لهذا الأسلوب ، فمنهم من وظف هذا الأسلوب في مرثيته ليفيد الحسرة والأسى ، ومنهم من وظفه ليفيد التعظيم والرفع من قدر المرثي والإشادة بمكانته العلمية والأدبية ، فمن النوع الأول ما نجده عند إبراهيم الحلبي في رثائه لابن الشحنة إذ يقول([2]) :

جـار الزمـان وقـد رمـى بمصـاب قلبـــا كوتـــه فرقـــة الأحبـــاب
وســطا علــى جســد كســته لوعــة الأحـــزان أثوابـــا وأي ثيـــاب ؟

ومنه ما جاء في قول بوران بنت الشحنة في رثائها لأخويها العفيف والمحب([3]) :

وأطـول حزنـي ووا وجـدي ووا أسـفي فـيم الإقامـة بالشـهباء لا سـكني ؟

وقولها في المحب وحده([4]) :

وكيـــف تصـــبري وأخـــي رهـــين بـأرض الشـام فـي ظلمـات قبـر ؟

كذلك قول العسقلاني في رثائه لأخته([5]) :

فـأين اصـطباري بعـدها قـد فقدتـه ؟ كمـا أن قلبـي تـولى بـلا خلـف

ومنه قول شرف الدين في رثائه لزوجته فاطمة([6]) :

هـي الـنفس حنـت مـن شـجاها وأنـت ففـيمَ تلـوم العـين إن هـي شـنت ؟

([1]) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، الناشر المكتبة العصرية، بيروت ، ص 78

([2]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 737/1 .

([3]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 403/1 .

([4]) السابق 405/1 .

([5]) ديوان ابن حجر 224 .

([6]) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 2/ 342 .

وقوله([1]) :

وهل ينبغي لي أن أرى اليوم ساليا وفاطمة في باطن اللحد سلت ؟

ومنه أيضا ما جاء في قول الشهاب المنصوري في رثائه لمحمد المازوني([2]) :

كم لطمة من قدم أو يد في خدي الدكة والدف ؟

كذلك قول الشهاب بن حجر في رثائه لزين الدين العراقي([3]) :

مصاب لم ينفس للخناق أصار الدمع جارا للمآق ؟

أما الاستفهام الذي يفيد التعظيم والرفع من قدر ومنزلة المرثي ، فمنه ما جاء في رثاء ابن الشحنة للقاضي علاء الدين الناصرية ، إذ يقول([4]) :

مَن للمدارس بعده علامة ؟ مَن للفتاوى إن بغي إفتاء ؟

فقد أنكر ابن الشحنة وجود عالم يتمتع بهذا القدر من المواصفات العلمية التي اتصف بها هذا القاضي ، مستخدما لهذا أداة الاستفهام "من" .

ومنه كذلك قول ابن حجر العسقلاني في رثاء سراج الدين البلقيني([5]) :

مَن للفضائل أو من للفواضل أو مَن للمسائل يلقيها بلا ضجر ؟

من للفوائد أو من للعوائد أو من للقواعد يبنيها بلا خور ؟

من للفتاوى وحل المشكلات إذا جل الخطاب وظل القوم في فكر ؟

لمن يكون اختلاف الناس إن اتفقت عمياء والحكم فيها غير مستطر ؟

حيث يكرر ابن حجر في مرثيته أداة الاستفهام "من" عدة مرات ، ليخرج بذلك الاستفهام من معناه الحقيقي إلى معنى التعظيم والرفع من قدر هذا العالم الجليل .

وفي السياق نفسه نجد الشاعر أبو الخير يرثي العلامة ابن موسى ، مبينا مكانته العلمية المرموقة ، إذ يقول([6]) :

من للمحابر والأقلام والكتب بعد ابن موسى ومن للعلم والأدب ؟

نافيا ومنكرا عن غيره تلك الصفات والقدر العلمي الواسع الذي تمتع به هذا العلامة .

([1]) البدر الطالع 343/2 .

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 346/2 .

([3]) عصر سلاطين المماليك 367/8 .

([4]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 223/5 .

([5]) السيوطي ، حسن المحاضرة 192 .

([6]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 58/10.

كذلك أكثر الشعراء في مراثيهم من استخدام كم الاستفهامية للدلالة على الكثرة ، ومن ذلك مثلا قول عماد الدين بن الزبراح في رثاء أبي الفضل بن حجر([1]) :

فكـم جسـوم بإطبـاق الثـرى بليـت وأوجـه أسـكنت بعـد النعـيم حفـر؟

وقوله([2]) :

هـي الليـالي خطـوب تعتـري وغيـر فكم أرتنـا صـروف الحادثات غير ؟

وقوله أيضا([3]) :

كم كدرت وصفت ؟ كم أخلقت ووفت؟ وكـل ذا بقضـاء قـد جـرى وقـدر

ومنه كذلك قوله([4]) :

علـى إمـام عليـه الخلـق قاطبـة أثنت وكم قد حكت في الجود عنه سير

إلى غير ذلك من الشواهد التي تعج بها قصائد الرثاء ، والتي – كما رأينا – الاستفهام فيها خرج عن غايته التقليدية إلى الإخبار بعلو شأن ومكانة المرثي .

4- التوكيد :

هو أسلوب لجأ إليه شعراء هذا العصر ووظفوه في قصائدهم الرثائية ليؤكدوا شدة الألم والحزن على موت أقاربهم ، فهذا العسقلاني يصف حاله حينما فارقته شقيقته مستعينا بأداتي التوكيد "إني" و "اللام" ، ليؤكد ألم فراقها الذي حل به ، يقول([5]) :

وإنـي غريـب لـو سـكنت ببلـدتي وإنـي وحيـد لـو ركنـت إلـى إلـف

وقوله([6]) :

إلهـي تـداركني بلطـف فـإنني إذا لـم تغثنـي يـا قـوي لفـي ضـعف
إلهـي حسـبي أنـت فـارحم تـذللي فـإني فيمـا نـابني بـك أسـتكفي

واستخدم بعض الشعراء أداتي التوكيد "قد" و "لقد" ، وشواهد ذلك كثيرة نذكر منها ما جاء في رثاء الشاعر الخطيب لقاضي القضاة لسان الدين أحمد بن محمد بن الشحنة ، يقول([7]) :

([1]) كنوز الذهب في تاريخ حلب 221/2 .
([2]) السابق 221/2 .
([3]) السابق 221/2 .
([4]) السابق 221/2 .
([5]) ديوان ابن حجر 223 .
([6]) ديوان ابن حجر 224 .
([7]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 124/1 .

وقد هيج الطاعون في الناس علة مضت فيه أرباب الصفا والمحبة
فمنهم لسان الدين قاضي القضاة من هو الركن في الإسلام للحنفية

إن الشاعر يؤكد أن علة الطاعون قد أفنت الكثير من الخلق ومنهم القاضي لسان الدين .

ثم يؤكد الشاعر أن سيرة هذا القاضي العطرة ، وذكره الحسن وما عُرف به من صفات الحياء والعفة قد شاعت في مختلف الأماكن ، فيقول([1]) :

لقد شاع في كل الأماكن ذكره بحسن ثناء مع حياء وعفة

كذلك يستخدم الشاعر الأزهري أداة التوكيد "قد" مرتين في النص التالي ، مرة لتأكيد أثر موته حيث نكست أعلام المنبر الذي كان يخطب عليه ، وفي المرة الثانية لتحقيق تاريخ وفاته – في شهر صفر – فيقول([2]) :

أبكي على خطب له مع خطبة ميتا وحيا دائم الأشجان
منبره أعلامه **قد** نكست كمثل أقلام حوت لمعان
من بعده لا در در حلب إلا شؤون الدمع بالأجفان
عم البكاء مرسلات أدمعي لما أتى حين على الإنسان
حل الحمام ذاته في صفر فنشره **قد** صح بالتبيان

ثم يؤكد الأزهري على صلاح هذا القاضي ، فيرى أن قبره أضحى في الفردوس ، يقول([3]) :

سقيا لقبر صار فيه أحمد قد حف بالفردوس والجنان

إلى غير ذلك من صور التأكيد وأدواته التي استخدمها شعراء الرثاء .

([1]) السابق 125/1 .

([2]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 124/1-125.

([3]) السابق 125/1 .

5- الشرط :

هو أسلوب يدل على تلازم جملتين وارتباطهما بواسطة أداة تسمى أداة شرط ، ويتألف أسلوب الشرط من ثلاثة عناصر هي : أداة الشرط التي تربط بين الجملتين ، وجملة الشرط ، وجملة جواب الشرط ، وإن هذا التركيب يدل على أن الجواب لا يتحقق إلا إذا تحقق فعل الشرط، وصوغ المعاني على قالب أسلوب الشرط يكسبها إحكاماً وترابطاً منطقياً، إذ ترتبط أجزاء المعنى فيما بينها ارتباط مكونات أسلوب الشرط بينها : وهو ارتباط السبب بالنتيجة ، الأمر الذي يؤكد المعنى المراد([1]) .

لقد أفاد شعراء الرثاء من أسلوب الشرط في التعبير عن آرائهم في الحياة والموت ، وارتباط كل منهما بالآخر ، فابن إياس الحنفي – مثلاً – يقرن صفاء العيش بتكدره ، ليعبر عن رأيه في عدم ديمومة صفاء العيش للإنسان ، ذلك ما ينطوي عليه قوله في رثاء الأمير تاني بك فرا([2]) :

قد خانه ريب الزمان بفعله والدهر إن يصفو يعود مكدرا

أما الشاعر الشهاب الحجازي فيستخدم أسلوب الشرط ليعبر عن حتمية الموت ، ويُذكّر بأهمية الرضا بقضاء الله والتسليم لإرادته ، يقول في رثائه لابن حجر العسقلاني([3]) :

كل البرية للمنية صائرة وقفوا لها شيئا فشيئا سائرة

والنفس إن رضيت بذا ربحت وإن لم ترض كانت عند ذلك خاسرة

ويتمنى الشاعر الخطيب أن يلتقي القاضي ابن الشحنة ويختلي به لكي يشكو له شدة اشتياقه إليه ولوعته بعد فراقه ، يقول([4]) :

متى لي أن أحظى بقرب الأحبة ويسعدني دهري بساعة خلوة

فأشكو أليم البعد والصد والجفا وأبدي لهم همي وذلي ولوعتي

استخدم الشاعر أسلوب الشرط للتأكيد على حبه ولوعته على فراق ابن الشحنة . إلى غير ذلك من صور هذا الأسلوب التي تحقق ترابط أجزاء النص ، وتؤكد على المعاني التي أراد الشعراء التأكيد عليها .

([1]) انظر : أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي : سر صناعة الإعراب ، الطبعة الأولي ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان 2000م ، 48/1 .

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 430/3 .

([3]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ص 215–216 .

([4]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 124/1 .

6- الاستدراك :

هو رفع توهم يتولد من الكلام السابق رفعاً شبيهاً بالاستثناء ، وهو معنى لكن([1]) ، واستعمال "لكن" في الاستدراك ، هو الغالب فيها ، وقد تستعمل لتأكيد النسبة وتقويتها في ذهن السامع ، إيجابية كانت أو سلبية([2]) ، وقد أكثر شعراء هذا العصر من الاستدراك في مراثيهم ، من ذلك ما جاء في قول عبد الرحمن بن أبي الوفا في رثائه لصديقه([3]) :

رعى الله أياما وناسا عهدتهم جيادا ولكن الليالي صيارفا

ومنه ما جاء في قول العسقلاني في رثاء شقيقته([4]) :

بكيت على البدر المنقل للنوى ولكنه ما زال في القلب والطرف

إن الموت يُغيب الميت ويبعده عن العيون ، ولكن الشاعر يستدرك على هذا المعنى المقرر بداهة لدى الناس جميعاً للتأكيد على أن أخته الميتة مازالت حاضرة في قلبه وتحت ناظريه .

كذلك قول ابن إياس الحنفي في رثائه للأمير تاني بك فرا([5]) :

لم يقتلوه فوق ظهر جواده لكن قاتله تعدى وافترى

يستنكر ابن إياس الطريقة التي قتل فيها الأمير تاني بك فرا ، لأنه لم يقتل في ساحة الوغى ، ويقرر أن قاتله تعدى حدود الله وافترى .

وفي رثاء الأتابكي تمراز يستخدم ابن إياس أسلوب الاستدراك أيضاً في قوله([6]) :

مصيبة جلت فمن أجلها قد أطلقت في كل قلب زناد

لكن له في قتله أسوة إلى الحسين بن علي الجواد

لكي يؤكد الصفات المشتركة بين مقتل الأتابكي تمراز ومقتل الحسين بن علي ، ويوظف هذا الاستدراك لغايتين ، الأولى منهما هي استنكار طريقة القتل ، والثانية التأكيد على صفات الصلاح والتقوى من خلال التأسي بالحسين .

([1]) علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني، الشهير بابن معصوم : أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق شاكر هادي شكر ، ط1 ، مطبعة النعمان – النجف الأشرف ، العراق 1968م ،385/1.

([2]) ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 314/1 .

([3]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 59/4.

([4]) ديوان ابن حجر 223 .

([5]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 430/3.

([6]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 374/3 .

ومنه قول الحجازي في مرثيته التي نظمها في ابن حجر العسقلاني([1]) :

وأنا الذي راض بأحكام مضت عن ربنا المهيمن صادرة

لكن سئمت العيش من بعد الذي قد خلف الأفكار منا حائرة

حيث يستثمر الشاعر الاستدراك في إظهار مدى حزنه وسأمه العيش بعد موت ابن حجر بالرغم من تسليمه بأحكام الله ومشيئته .

وفي السياق نفسه يقول الحجازي في رثائه لابن حجر العسقلاني([2]) :

قد خلف الدنيا خرابا بعده لكنما الأخرى عليه عامرة

يستثمر الشاعر الاستدراك لإظهار العديد من المعاني ، منها : تأكيد نفعه وتأثيره في الناس حيث أصبحت الدنيا بعده خراباً ، ومنها أيضاً تأكيد صلاحه ومنزلته في الآخرة .

ومن صور الاستدراك أيضاً نذكر قول الشرف بن المقرئ في رثائه للفقيه إسماعيل اليماني([3]) :

وما موت إسماعيل موت مجاور إذا مات أبكى ابنا وأوحش منزلا

ولكنه موت رمى كل منزل بما أرمل الناشين فيه وأثكلا

حيث يرى الشاعر أن أثر موت الفقيه إسماعيل اليماني لا يقتصر على أبنائه ومنزله ، بل امتد أثر هذا المصاب إلى كل المنازل والناس .

([1]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 215 .

([2]) ديوان ابن حجر 28 .

([3]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 280/2 .

7- القصر :

القصر في اللغة هو الحبس ، وفي الاصطلاح تخصيص شيء "صفة أو موصوف" بشيء "موصوف أو صفة" بطريق مخصوص "ما وإلا وما شابه ذلك ..."([1]).

وقد استخدمه شعراء هذا العصر في مراثيهم ليحملوا كلامهم محمل النفي والاستثناء ، ومن ذلك ما جاء في قول الإمام شرف الدين في رثائه لزوجته فاطمة([2]) :

وما فاطم إلا من الحور أخرجت لنعرف قدر الحور ثمة ردت

يريد الشاعر باستخدامه أسلوب القصر التأكيد على صفة لا يتصف بها الناس ، إنها من صفات الجنة ، وأن زوجته فاطمة من بين الخلق مخصوصة بهذه الصفة ، إنها من الحور العين اللواتي لا يوجدن إلا في الجنة ، لذلك كان موتها بمثابة العودة إلى الجنة التي هي مسكنها .

ومنه قول عبد الرحمن بن أبي الوفا في رثائه لصديقه([3]) :

وما كنت أخشى أمس إلا من الجفا وإني على ذاك الجفا اليوم آسف

يوازن الشاعر بين صفة الجفاء في الدنيا حيث كان يخشى أن تحدث بينه وبين صديقه ، والجفاء الحتمي الذي يفرضه الموت ، ثم يأسف على موت صاحبه وذلك من خلال أسفه على خشيته على الجفاء في حياته ، فكأنه يتمنى لو جفاه صاحبه وبقي حياً .

ومنه ما جاء في قول الشهاب الحجازي في رثائه لأبي الفضل بن حجر([4]) :

لم يصف منهل عيش لا مرئ أبدا إلا وعقبه بعد الصفاء كدر

يخصص الشاعر صفة الكدر مؤكداً أن صفاء العيش لا يدوم ، وهو يشير إلى تكدر عيشه بعد موت صديقه ابن حجر .

كذلك قول أبي إِسْحَاق في رثاء ولده([5]) :

فَمَا ذقت طعم المَاء إِلَّا وجدته يخاطبني فِي صَفوه وأخاطبه

يريد الشاعر بهذا التخصيص أن يؤكد أن صورة ولده لم تفارقه أبداً ، فهو يراه كلما شرب الماء ، والصفة المشتركة بين شربه الماء ومحاورته مع ولده في حالة صفو الماء هي موت ولده غرقاً .

([1]) الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الثالثة ، دار الجيل – بيروت ، ص5 .

([2]) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 342/2 ..

([3]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 59/4 .

([4]) كنوز الذهب في تاريخ حلب 221/2 .

([5]) طبقات صلحاء اليمن/ المعروف بتاريخ البريهي 296/1 .

وغير ذلك من الشواهد التي تدلل على اعتماد الشعراء أسلوب القصر لتخصيص بعض الصفات والمعاني التي يريدون إبرازها ، ولفت الانتباه إليها .

8- التمني :

وهو ذلك الأسلوب الذي يتمنى فيه الإنسان تحقق أمنية معينة وحدوثها ، فقد يتمنى الإنسان أي أمر من الأمور ويتحقق له ذلك الأمر ، ولكن يبقى الموت القدر المقدر الواقع بتدبير الخالق المدبر، والذي يستحيل أي شيء إيقافه ، فلا تمنٍ ولا فداء يوقفه ، يقول عز من قائل في كتابه العزيز : "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ"([1]).

لكن الإنسان ما إن يفقد شخصٌ عزيزٌ إلى قلبه يتمنى لو أنه يفديه بما يملك ، ويتمنى لو أنه كان مكانه ... كل ذلك لما يعتصر قلبه من ألم وحزن على من فقده ، وقد تمنى شعراء هذا العصر فداء الأحبة بكل ما يملكون ، فتمنوا الحلول مكانهم ، أو لو أنهم ماتوا قبلهم ، ومن ذلك ما نجده عند بوران بنت الشحنة في رثائها لأخيها إذ تقول([2]) :

قد مات في غربة والشام مسكنه يا ليتني قبل ذا أدرجت في كفني

إنها تتمنى لو كانت ماتت قبل أخيها لكي لا تشهد فاجعة موته ، ولا تتحسر عليه .

ومثله قول الشهاب الحجازي في رثائه للعسقلاني إذ يقول([3]) :

قهرتني الأيام فيه فليتني في مصر مت ولا رأيت القاهرة

ومِن الشعراء مَنْ تمنى أن يلتقي بالأحبة ولو لساعة ، وذلك كما فعل الخطيب في رثائه لابن الشحنة إذ يقول([4]) :

متى لي أن أحظى بقرب الأحبة ويسعدني دهري بساعة خلوة

ومنهم من تمنى أن يكون التراب الذي يضم هذا الميت ، وذلك كما فعل محمد بن إياس في رثائه لبدر الدين بن مزهر إذ يقول([5]) :

يا ترابا ضَمَّ بدري ليتني كنت ترابا

([1]) سورة الأعراف ، آية 34.

([2]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 1/ 403-405 .

([3]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 215 .

([4]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 124/1 .

([5]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 71/4.

وإن كّنا نلاحظ أن أمنيته تتماثل مع أمنية الكافر يوم القيامة كما جاء في قول الله تعالى : "وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً" ([1]) ، فإن الشاعر حتماً لا يقصد هذا المعنى ، بل قصد التعبير عن شدة حبه للميت فتمنى لو كان التراب الذي يحتضن جسده .

9- المبالغة :

وهي تهويل المشهد ، بحيث تبدو الصورة أكبر إذا ما قيست بحجمها الطبيعي ، وقد وظفها شعراء هذا العصر في مراثيهم لبيان قيمة وقدر المرثي ، إذ بموته فقدوا كنوز علم ومعرفة ومنها ما جاء في قول ابن العطار في رثائه لشمس الدين القاياتي حيث يقول([2]) :

طلعتَ على البرية شمسَ علم فلا عجب مصيرك للأفول

فقد شبه ابن العطار المرثي بشَمس علوم مشرقة ، ولمّا كانت الشمس تشرق وتغرب فلا عجب في أفوله وموته .

وفي السياق نفسه يقول الكافيجي في رثاء العسقلاني([3]) :

بكيت على فراقك كل يوم وأمليت الجفان من الجفون
ولو كان البكاء بقدر شوقي لملأت العيون من العيون

تتجلى المبالغة في قوله " وأمليت الجفان من الجفون" ، فالجفان مفردها جفنة وهي وعاء يوضع فيه الطعام ، والجفون هي جفون العين ، فهو يقول بكيت على فراقك كل يوم حتى ملأت الجفان من دموع العين ، ثم يمعن في المبالغة في البيت الثاني حيث يقول لو كان البكاء على قدر الشوق لملأ عيون الماء من دموع عينيه .

وشواهد المبالغة كثيرة ، وهي جلية في الفصلين الأول والثاني ، وهو أسلوب عرفه الشعراء منذ الجاهلية ، وانتشر في جميع أغراض الشعر ، ولا عجب أن ينتشر في شعر الرثاء حيث الحاجة إلى الإطناب في بيان مكانة الميت في نفس الشاعر ، والمبالغة في التعبير عن حزنه عليه .

([1]) سورة النبأ ، آية 40 .

([2]) السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان 154.

([3]) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، تحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد ، ط1 ، دار ابن حزم – بيروت – لبنان 123/3 .

10- التقديم والتأخير :

وهي ظاهرة كثرت في مراثي شعراء هذا العصر، وفي ظني أن لجوء الشعراء لهذه الظاهرة منح قصيدة الرثاء جرسا موسيقيا حزينا يتناسب فيه الوزن مع القافية ، ليوقع في السمع أثرا شجيا يجذب مشاعر وإحساس السامع أو القارئ لما يحمله ذلك الجرس الموسيقي الشجي من معاني الحزن والألم ، هذا بالإضافة لما هو معلوم من غاية التقديم والتأخير ، حيث الاهتمام بالمقدم والتأكيد عليه ، وقد برزت تلك الظاهرة جلية في مراثي العلماء والفقهاء ، فمن ذلك ما جاء في قول ابن الشحنة في رثاء علاء الدين بن الخطيب([1]) :

ناحت على سلطانها العلماء وبكت لفقد علائها الشهباء
وانهد ركن أي ركن شامخ للمسلمين ويُتم الفقهاء

تتجلى ظاهرة التقديم والتأخير واضحة في الأبيات السابقة ، حيث قدم الجار والمجرور "على سلطانها" على الفاعل "العلماء" ، فالأصل أن يقول : ناحت العلماء على سلطانها . كذلك في الشطر الثاني من البيت الأول قدم الجار والمجرور والمضاف إليه "لفقد علائها" على الفاعل "الشهباء" ، والأصل أن يقول : بكت الشهباء لفقد علائها .

ومن التقديم والتأخير أيضا قول المنصوري في رثائه لمحمد المازوني([2]) :

كانت به لذاتنا موصولة فانقطعت بموته اللذات
وكانت الأصوات تزهو بهجة فارتفعت لموته الأصوات

فقد قدم الشاعر الجار والمجرور "بموته" على الفاعل "اللذات" ، كما قدم الجار والمجرور "لموته" على الفاعل "الأصوات" .

([1]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 232/5 .

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 346/2 .

11 - النداء :

أكثر الشعراء من استخدام أسلوب النداء ، فخاطبوا الدهر ، والموت ، والقلب ، والعين ، والميت ... ملقين عليهم كامل اللوم والعتاب ، وأمثلة ذلك كثيرة ، فهذا ابن إياس نراه قد خاطب الدهر محملا إياه كامل المسؤولية على فراقه للأمير تمراز ، إذ يقول([1]) :

أرغمت يا دهر أنوف الورى بقتل تمراز ويتم العباد

ومنه قول إبراهيم الحلبي في رثاء ابن الشحنة([2]) :

خربـــت ربعـــا عـــامرا يـــا دهرنـــا بليـــت ربوعـــك دهرنـــا بخـــراب

وإبراهيم الحلبي كابن إياس في تحميل المسئولية للدهر عمّا أصاب العباد من يتم وحزن ، وعمّا أصاب البلاد من خراب ، وإن كان الحلبي قد جعل الدهر مخاطباً قريباً حينما أضافه وخصصه وكذلك بحذف أداة النداء في الشطرة الثانية ، وذلك بهدف لفت الانتباه إلى ما يوهم أنه شخص قريب .

ويخاطب الزين شعبان الآثاري الموت في رثائه لصدقة الأسعردي ، إذ يقول([3]) :

يـا مـوت تطلـب منـي الـروح دونكهـا لأن كـل مـا لـي فـي الهـوى صـدقة

يستعين الآثاري بالنداء لتشخيص الموت ويدير معه حواراً يفترض فيه أن الموت يطلب روحه ، فيخبره أنه يقدمها بطيب خاطر لأنه ليس له محبوباً سوى صدقة .

ومن الشعراء من خاطب الميت ليشكو له شوقه وما ينتابه من ألم ولوعة للقياه ، داعيا له المولى عز وجل بالرحمة والغفران ، من ذلك ما نراه في رثاء ابن الشحنة لعلاء الدين بن الخطيب ، حيث يقول([4]) :

يـا شـيخ الإسـلام ارتحلـت برغمنـا فانســـر قـــوم مـــا هـــم أكفـــاء

يـابن الخطيـب سـقى ثـراك بوابـل مـــن رحمـــة لا تنقضـــي ســـحاء

ومنه قول ابن العراقي في رثاء أخيه([5]) :

أ إبـــراهيم كنـــت لـــي أنيســـا تُـــرَوِّح بالحـــديث لنـــا نفوســـا

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 374/3 .

([2]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 737/1 .

([3]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 317/3 .

([4]) محمد راغب الطباخ الحلبي : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 223/5 .

([5]) ابن العراقي : الذيل على العبر 534/2 .

وقد استخدم أداة النداء "الهمزة" ليوحي للقارئ أنه ينادي قريباً ماثلاً أمامه ، وليعبر عن مكانة أخيه الميت في نفسه .

ومن الشعراء مَن خاطب البين ، ملقيا عليه اللوم لأنه يفرّق بين الأحبة ويتسبب في المحن والأحزان ، وذلك كما فعلت بوران بنت الشحنة في رثاء أخويها ، إذ تقول([1]) :

يا بين بالغت في الأشجان والمحن وجلت فينا بجد ليس بالحسن

هذا وقد جمع بعض الشعراء في مراثيهم بين النداء والاستفهام لجعل المخاطب في مركز الاهتمام ، حيث يلفت انتباه المخاطب بالنداء عليه ثم يسأله ، ومن ذلك ما جاء في قول شهاب الدين الأوحدي في رثاء صديقه فارس الأعرج([2]) :

يا دهر كم تفني الكرام عامدا هل أنت سبع للورى ممارس

ومثله قول العسقلاني في رثاء أخته([3]) :

أسيدة الركب الرحيل رأيته فهل من سبيل للقفول ومن عطف

وإن كان العسقلاني قد استخدم أداة نداء القريب ؛ الهمزة ، الأمر الذي يجعل الاستفهام أكثر إقناعاً بمثول المخاطب أمام الشاعر .

كذلك جمع بعض الشعراء بين أسلوبي النداء والأمر ، آمرين بذلك العين أن تذرف الدموع والبكاء وتكثر من النحيب ، من ذلك قول محمد بن إياس في رثاء الأتابكي قرقماش([4]):

يا عين جودي بفيض دمع وأكثري في البكا انتحابيك

ومنه قول العسقلاني في رثاء سراج الدين البلقيني([5]) :

يا عين جودي لفقد البحر بالمطر واذري الدموع ولا تبقي ولا تذري

ومنه قول الشيرازي في رثائه لفخر الدين بن ظهيرة([6]) :

يا عين جودي بدمع منك منسجم لفقد عين الكرام العالم العلم

([1]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 403/1 .

([2]) ابن تغري بردي الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 169/12.

([3]) ديوان ابن حجر 223 .

([4]) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري : المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مطابع الشعب ، القاهرة ، 808.

([5]) ديوان ابن حجر العسقلاني .

([6]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 31/5 .

ومن الشعراء مَن جمع بين النداء والشرط ، ليحمل قوله معنى التحذير والتوبيخ أو الوعيد والتهديد ، وذلك كما فعل يوسف الحلبي في رثاء صديقه ابن الشحنة ، إذ يقول([1]):

يـــا قلـــب إن تنســـاه يومـــا كـــاملا تبلـــى بـــوخز مهنـــد وحـــراب

11-الطباق :

ويعني الجمع بين لفظين متضادين في عبارة واحدة ، بين الشيء وضده ، لذا يسمى أيضا التضاد ، وينقسم الطباق إلى شقين : طباق الإيجاب مثل النهار والليل ، والحق والباطل ، والعدل والظلم ، وطباق السلب مثل يبكي ولا يبكي([2]) ... وقد أكثر شعراء هذا العصر من استخدام طباق الإيجاب في مراثيهم ، وقد استخدموا الطباق بهدف توضيح المعنى وتوكيده ، ومن ذلك مثلا ما جاء في قول شمس الدين الزركشي في رثاء الملك الظاهر برقوق([3]) :

ورافـــع كـــل فتـــى مـــؤمن وخـــافض المشـــرك والكـــافر
وناصـــب للحـــق أعلامـــه وجـــازم الباطـــل بالبـــاتر

طابق الشاعر بين : رافع وخافض ، ومؤمن وكافر ، وناصب وجازم ، وحق وباطل ، الأمر الذي أدى إلى توكيد المعنى وتوضيحه ، فبضدها تتميز الأشياء .

ومثله قول الشهاب المنصوري في رثاء أمير مكة الشريف بركات([4]) :

يـــا ترحـــة الأحيـــاء عنـــد فراقـــه وبقربـــه يـــا فرحـــة الأمـــوات

حيث طابق بين : ترحة وفرحة ، والأحياء والأموات ، وفراقه وقربه .

وقول الحجازي في رثائه لابن حجر العسقلاني([5]) :

قـــد خلـــف الـــدنيا خرابـــا بعـــده لكنمـــا الأخـــرى عليـــه عـــامرة

حيث طابق بين : الدنيا والأخرى ، وخرابا وعامرة .

([1]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 737/1 .

([2]) راجع : ابن أبي الأصبع : تحرير التحبير ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة 1383هـ ، ص 111- 115 . – كمال غنيم : علم الوصول الجميل ، الطبعة الأولى ، أكاديمية الإبداع ، فلسطين 2008م، ص65 .

([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 534/1 .

([4]) نظم العقيان في أعيان الأعيان 100.

([5]) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 215-216 .

ومنه قول سراج الدين في رثاء شهاب الدين أحمد بن أبي بكر ، المشهور بالمرعشي الذي جمع فيه بين طباق الإيجاب وطباق السلب([1]):

عيوني في الصباح وفي العشي تسح دما لفقد المرعشي
إمام كان في الشهبا شهابا منيرا لم يزل يهوي الصوابا
ولن تلقاه يوما قط حابي
فمال على الضعيف مع القوي ولا مع ذي العلوم على الخلي

حيث طابق بين : الصباح والعشي ، وكان ولم يزل ، والضعيف والقوي ، وذي العلوم والخلي ، ومن طباق السلب "مع ولا مع" .

13- أسلوب الأمر :

أكثر الشعراء من استخدام هذا الأسلوب متخذين منه متنفسا للتعبير عما يختلج قلوبهم من لوعة وأسى على من فقدوا ، آمرين بذلك العين أن تذرف دموعها ، والقلب والكبد أن يذوبا ، فهذا الزركشي يقول من لوعة الحزن على فراق السلطان برقوق([2]) :

يا كبدي الحَرّ ويا مُهجتي ذوبا عليه دهري الداهر
واتخذوا الندب لكم سنة عليه من باد ومن حاضر

ومثله قول ابن إياس في رثاء الأتابكي قرقماش([3]):

يا عين جودي بفيض دمع وأكثري في البكا انتحابيك

ومنه قول ابن حجر في رثاء زين الدين العراقي([4]) :

فيا أهل الشام ومصر فابكوا على عبد الرحيم بن العراقي

ومنه ما جاء في قول عفيف الدّين بن مَنْصُور في رثاء شرف الدّين الدمتي([5]) :

فَإِذا سَمِعت بِمَوْت حبر فابكه وابك الْأَنَام ونح على الْإِسْلَام

([1]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 178/1 .
([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 535/1 .
([3]) المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور 808.
([4]) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر بأبناء العمر 278/2.
([5]) طبقات صلحاء اليمن214/1 .

ومن الشعراء من أخذ يُهدئ من روع من أصابته نائبة ويحثه على الصبر على النوائب ، وذلك كما فعل الشاعر ابْن روبك في رثائه لجمال الدّين الدمتي ، إذ يقول([1]) :

فاصبر فَإِن الصَّبْر لِلْأَجرِ جالب فدونكم مَا كَانَ لِلْأَجرِ جالبا

إلى غير ذلك من شواهد أسلوب الأمر الذي يعج به شعر الرثاء ، والذي استثمر الشعراء استخدامه في توضيح المعنى والتأكيد عليه .

14- أساليب أخرى :

لعلّه من البدهي القول أن الشعراء استخدموا مختلف الأساليب البلاغية ، ليس لتزيين أشعارهم وتجويدها فقط ؛ بل للإفادة من غاياتها ووظائفها المتنوعة في خدمة المعنى وتوضيحه ، ومن الأساليب التي استخدموها أيضاً أسلوب **النهي** ، فنهي العين – مثلاً – عن التوقف عن البكاء ، يؤكد مكانة الميت في نفس الشاعر ، وحزنه الدائم عليه ، ومثال ذلك قول الزركشي في رثاء الملك الظاهر برقوق([2]) :

فبعده يا عين لا تبخلي بمدمع كالطيب المـاطر
وأنت يا سيدي لا تنفصل طول المدا ما عشت عن ناظري
لا ترضى إلا عليه البكا فابكوا بدمع هامل هامر

ومن فنون البديع التي استخدمها الشعراء أيضاً لاستثمار وظيفتها في تحسين الألفاظ وإضفاء جرسٌ موسيقيٌ على أشعارهم **الجناس** ، ومن أمثلة الجناس التام نورد قول الشاعر عماد الدين بن الزبراح في رثاء أبي الفضل بن حجر([3]) :

هي الليالي خطوب تعتري وغير فكم أرتنا صروف الحادثات غير

ومن أمثلة الجناس الناقص قول السيوطي في رثاء الشيخ الفقيه الشمسني([4]):

رزء عظيم به تستزل العبر وحادث جل فيه الخطب والغير

كذلك ما جاء في قول ابن حجر في رثائه للعراقي([5]):

([1]) طبقات صلحاء اليمن198/1 .
([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 535/1 .
([3]) كنوز الذهب في تاريخ حلب 221/2 .
([4]) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 283 .
([5]) ديوان ابن حجر العسقلاني 275 –276–277–278 .

مصـــاب لـــم يـــنفس للخنـــاق أصـــار الـــدمع جـــارا للمـــآق

وقول سراج الدين في رثاء المرعشي([1]) :

عيـوني فـي الصـباح وفـي العشـي تســـح دمـــا لفقـــد المرعشـــي

ومنه قول أحد الشعراء في رثاء المزجاجي([2]) :

وَأجـل خطـب فِـي الخطـوب مفـاجي نعيـــي الْـــوَلِيّ الصَّـــالح المزجـــاجي

ومن المحسنات اللفظية التي أفاد منها شعراء الرثاء في هذا العصر **السجع** وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير([3]) ، بحيث يوقع ذلك في السمع جرسا موسيقيا جميلا تطرب له الآذان ، وقد وظفه شعراء هذا العصر في مراثيهم لإبراز معاني الألم والحزن من خلال الجرس الموسيقي الشجي ، ومنه ما جاء في قول الحنفي في رثاء الشيخ الأسيوطي([4]) :

مـات جـلال الـدين غـوث الـورى مجتهـد العصـــر إمـــام الوجـــود
وحـــافظ الســـنة مهـــدي الهـــدى ومرشـــد الضـــال لنفـــع يعـــود
وأظلمـــــي دنيـــــاي إذ حـــــق ذا بـــل حـــق أن ترعـــد فيـــك الرعـــود

ومنه قول الشهاب المنصوري في رثاء الشهاب الحجازي([5]) :

زادنـــي فقـــد الحجـــازي شـــجى هـــل يطيـــب العـــيش فقـــدان الحجـــا

إلى غير ذلك من فنون البلاغة وأساليبها ، **كالتورية** – وهي من المحسنات المعنوية – كما في قول المنصوري في رثاء الحجازي([6]) :

لهف قلبي على أفول الشهاب تحفة القوم ونزهة الأصحاب

و**الكناية** في رثاء العسقلاني لسراج الدين البلقيني([7]) :

([1]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 178/1 .

([2]) طبقات صلحاء اليمن293/1 .

([3]) الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع 330 . وانظر : كمال غنيم : علم الوصول الجميل 73.

([4]) شمس الدين محمد الصالحي : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت 1998 ، ص 243–244 . – ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور83/4 .

([5]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 57/3 .

([6]) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة 574/1 .

([7]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 675/1 .

يا عين جودي لفقد البحر بالمطر واذري الدموع ولا تبقي ولا تذري

وحسن التعليل ومن أمثلته قول ابن أبي حجلة في رثاء الشيخ أكمل الدين محمد([1]) :

شيخ تقدم في العلوم لأنه إن عد أرباب الفضائل أول

تلك كانت أبرز فنون البلاغة التي وظفها الشعراء في شعر الرثاء في العصر المملوكي الثاني ، والتي مهما تحدثت فيها فلن ينتهي الحديث ولن أوفيها قدرها حق وفاء ، ولكن حسبي أنني سعيت إلى التدليل والتمثيل وليس الحصر ... لذلك أنتقل للحديث عن سمات فنية أخرى اتسم بها شعر الرثاء في هذا العصر ، وهي :

- **سهولة الألفاظ ووضوحها** : تعد اللغة التي استخدمها شعراء هذا العصر في مراثيهم لغة سهلة واضحة غير معقدة ، ومن ذلك مثلا قول محمد بن الشهاب الباعوني في رثاء ولده([2]):

أمحمدا إن كان قد عز اللقا ومضت مسرات الحياة بأسرها
فلأبكينك ما حييت وإن أمت فلتبكينك أعظمي في قبرها

كلمات رقيقة ، سهلة ، واضحة تعبر عما يختلج القلب من أسى ومن مشاعر جياشة حزينة لا تحتاج لإعمال الذهن في فهم معانيها ولا لفك رموزها وحروفها للوصول للمعنى المراد .

وفي ظني أن شعراء العصر المملوكي الثاني قد وفقوا في انتقاء اللغة المناسبة لقصائدهم حيث جاءت الألفاظ قوية جزلة منسجمة مع مضمون نص الرثاء ، معبرة في الوقت ذاته عن وافر معاني الحزن والألم والتفجع وصدق شعورهم تجاه من فقدوا ، كما و اتسمت بالرقة واللين والفصاحة والبعد عن التعقيد والتلاؤم بين الألفاظ والمعاني ، فمن ذلك مثلا قول شرف الدين في رثائه لزوجته فاطمة([3]) :

هي النفس حنت من شجاها وأنت ففيم تلوم العين إن هي شنت
مراجل حزن في فؤادي أوقدت فمن فيضها تلك الدموع استهلت
وهل ينبغي لي أن أرى اليوم ساليا وفاطمة في باطن اللحد سلت
عقيلة آل المصطفى والطهر التي بكل الأمور الصالحات تحلت

حيث يعبر شرف الدين عن وافر معاني الألم ولوعة الحزن والفراق ، ويتجلى ذلك الشعور والإحساس واضحا فيما استخدمه شرف الدين في مرثيته من كلمات جزلة ، وألفاظ قوية في

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 352/1 .

([2]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 114/7 .

([3]) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع 342/2.

تعبيرها وإيحائها دالة على حرقة الفراق كقوله : "أنت" ، "شجاها" ، "مراجل حزن" ، "شنت" ، "أوقدت" ، "الدموع استهلت" ، "فيم تلوم العين" ، هذا فضلا عن استخدام شرف الدين لأسلوب الاستفهام الذي أضفى على القصيدة معاني الحسرة والأسى ما يجسده من صدق الشعور بعمق الألم الذي يكابده شرف الدين لفراق زوجته ورفيقة دربه .

ومن القصائد التي برزت فيها السمات السابقة القصيدة التي نظمتها بوران بنت الشحنة في رثاء أخيها المحب ، وهي قصيدة يكفي أن نقول فيها أنها من شعر الندب والنواح الذي يُبنى على قوة العاطفة وصدق الإحساس بهول المصيبة ، والتي منها([1]) :

دعوا دمعي بيوم البين يجري فقد ذهب الأسى بجميل صبري
وكيف تصبري وأخي رهين بأرض الشام في ظلمات قبر ؟
فقدت أخي وكان أخي وظهري على الحدثان سماعا لأمري

هذا وقد بدا جليا **التلاؤم بين الألفاظ والمعاني** في المراثي التي نظمت في رثاء القضاة والعلماء والأدباء ، فمن ذلك القصيدة التي نظمها ابن الشحنة في رثاء القاضي علاء الدين ابن خطيب الناصرية ، والتي يقول فيها([2]) :

من للمدارس بعده علامة من للفتاوى إن بغي إفتاء
جل المصاب به وعم فموته قسما مصاب ليس عنه عزاء
الله أكبر يا لها من ثلمة في دين أحمد ما لها إرفاء
يا شيخ الإسلام ارتحلت برغمنا فانسر قوم ما هم أكفاء

حيث عبر ابن الشحنة عن مكانة علاء الدين ومنزلته العلمية والأدبية ، فاستخدم الألفاظ الدالة على ذلك "مَن للمدارس" ، "من للفتاوي" ، "يا شيخ الإسلام" .

ومن ذلك أيضا القصيدة التي نظمها ابن حجر العسقلاني في رثاء سراج الدين البلقيني التي يقول فيها([3]) :

من للفضائل أو من للفواضل أو من للمسائل يلقيها بلا ضجر
من للفوائد أو من للعوائد أو من للقواعد يبنيها بلا خور
من للفتاوى وحل المشكلات إذا جل الخطاب وظل القوم في فكر

([1]) ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب 403/1 .
([2]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 223/5– 224 .
([3]) ديوان ابن حجر العسقلاني 214 .

حيث جاءت الألفاظ على قدر المعاني لتتماهى مع الصفات التي اختص بها هذا العالم في حياته ، هذا فضلا عن تكرار استخدام أسلوب الاستفهام لكي يبين ابن حجر من خلاله المكانة العلمية لهذا العالم الجليل ويؤكد عليها .

كذلك تخيّر الشعراء ألفاظاً تتناسب مع حالة الفقد ، وذلك للتعبير عن أثر الفاجعة وهول المصيبة ، من ذلك قول المنصوري في رثائه لابن عيد([1]) :

زلزلت مصر يوم مات بها قاضي القضاة المهذب الحنفي

حيث استخدم لفظ "زلزلت" للتعبير عن أثر فقد مصر لقاضي قضاة الحنفية .

ومثله قول السيوطي في رثاء الفقيه الشمسني([2]) :

ما فقد شيخ المسلمين سوى انهدام ركن عظيم ليس ينعمر

حيث عبّر عن الآثار المترتبة على موت الفقيه الشمسني بقوله : " انهدام ركن عظيم ليس ينعمر" .

كذلك قول الشهاب بن حجر في وصف هول المصاب في موت زين الدين العراقي ، حيث جعل موته علامة من علامات يوم القيامة ، وقد تحققت هذه العلامة بموته([3]) :

لقد عظمت مصيبتنا وجلت تسوق إلى العلوم أي اتساق
وأشراط القيامة قد تبدت وآذن بالنوى داعي الفراق

- **الطابع الإسلامي** : وقد اتخذت مراثي العصر المملوكي الثاني طابعا إسلاميا بدا جليا في أشعارهم الرثائية التي نظموها ، فتحدثوا عن الموت والآخرة والجنة والنعيم والقبر وهي المعاني التي يقتضيها فن الرثاء ، فبدا جليا التأثر بالقرآن الكريم في أشعارهم الرثائية ، ففي قول شمس الدين الزركشي في مرثيته التي رثى بها الظاهر برقوق([4]) :

في مقعد الصدق لذا جنة عند مليك غافر قادر

حيث وظف الشاعر النص القرآني توظيفاً أفقياً([5]) ، وذلك من خلال إلماحه إلى قول الله تعالى : "فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ"([6]) .

([1]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 180/1 .

([2]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 282-283 .

([3]) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر 278/2 .

([4]) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور 534/1 .

([5]) راجع مفهوم التوظيف الأفقي وباقي أشكال التوظيف في : نبيل خالد أبو علي : في نقد الأدب الفلسطيني ، الطبعة الأولى ، دار المقداد للطباعة ، غزة 2001 ، ص 94 وما بعدها .

([6]) سورة القمر ، آية 55 .

وكذلك قول محمد بن إياس الحنفي([1]):

قد غادر الأمراء جور زمانهم فالحكم للرحمن فيما قدرا

الذي يشير فيه إلى قول الله تعالى : "الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ"([2]).

أما ابن حجر العسقلاني فيعبر عن حقيقة الموت الذي لابد أن يلقاه كل إنسان ، ويبين منزلة الذي يلقى الموت بنفس راضية مطمئنة ، فيقول([3]):

كل البرية للمنية صائرة وقفوا لها شيئا فشيئا سائرة

والنفس إن رضيت بذا ربحت وإن لم ترض كانت عند ذلك خاسرة

إنه يستلهم قول الله تعالى : "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ"([4]) ، وبقوله عزّ وجلّ : "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي"([5]).

كذلك يستلهم الشهاب المنصوري في رثائه للقاضي سعد الدين الديري([6]) :

سقاه الله عينا سلسبيلا وأسبغ ما عليه من الضلالي

وبوأه من الفردوس مثوى ورقاه إلى الغرف العوالي

يستلهم الشاعر معاني الدعاء للقاضي الديري من ثقافته الدينية وحفظه لآي الذكر الحكيم ، فيشير إلى قوله تعالى في حق أصحاب الجنة : "وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً"([7]) ، كما يشير إلى قوله تعالى: "وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"([8])، وكذلك قوله عزّ وجلّ : "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ"([9]).

ومثل ذلك قول محمد الأزهري مصورا مدى حزنه على القاضي ابن الشحنة([10]):

عم البكاء مرسلات أدمعي لما أتى حين على الإنسان

فهو ينظر إلى قوله تعالى : "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً"([11]).

([1]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 430/3 .

([2]) سورة الفرقان ، آية 26 .

([3]) ديوان ابن حجر 28 . – حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 216 .

([4]) سورة الرحمن ، آية 26.

([5]) سورة الفجر ، آية 27–28–29–30 .

([6]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 401/2.

([7]) سورة الإنسان ، آية 21 .

([8]) سورة لقمان ، آية 20 .

([9]) سورة العنكبوت ، آية 58 .

([10]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 124/1 .

([11]) سورة الإنسان ، آية 1 .

كذلك قول ابن حجر العسقلاني في رثاء شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني([1]) :

يا عين جودي لفقد البحر بالمطر واذري الدموع ولا تبقي ولا تذري

إذ يستمد كلماته من قوله تعالى : "لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ، لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ"([2]) .

ويعبر عبد الباسط الحنفي عن مدى حزنه على موت جلال الدين الأسيوطي فيقول([3]):

وحق للأجيال حزنا وأن تطوى السماء طيا كيوم الوعود

وأن يغور الماء والأرض أن تميدا إذ عم المصاب الوجود

حيث يبدو جليا أن عبد الباسط قد استحضر في وجدانه العديد من آيات القرآن الكريم ، فأشار إلى قوله تعالى : "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ"([4]) ، وكذلك قوله تعالى : "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ"([5]) ، وقوله جلّ مِن قائل : "أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً"([6]) ، وقوله تعالى : "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي"([7]).

وأيضا قول الشهاب المنصوري في رثاء الحجازي([8]) :

كان في مطلع البلاغة يسري فتوارى من الثرى بحجاب

يوظف فيه قوله تعالى : "حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ"([9]) ليستثمر قداسة المعنى القرآني ، وكثافة دلالته .

واستلهم العسقلاني آيات الذكر الحكيم في التعبير عن ألمه لفراق شقيقته ، وقد سلم أمره لخالقه ، فقال([10]) :

إلى الله إنا راجعون وحسبنا ونعم الوكيل الله ذو المن واللطف

([1]) ديوان ابن حجر العسقلاني 214 .

([2]) سورة المدثر ، آية 28 – 29 .

([3]) الصالحي : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان 243 .

([4]) سورة الأنبياء ، آية 104 .

([5]) سورة الملك، آية 30 .

([6]) سورة الكهف، آية41 .

([7]) سورة هود، آية44 .

([8]) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة 1/ 574 .

([9]) سورة ص ، آية .32

([10]) ديوان ابن حجر 223 .

لقد استلهم قوله تعالى : "الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ"([1])، وقوله تعالى : "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ"([2]) ليؤكد احتسابه وتسليمه بقضاء الله وقدره .

وقول العسقلاني في رثاء أخته أيضا([3]) :

إلهي حسبي أنت فارحم تذللي فإني فيما نابني بك أستكفي

الذي يستلهم فيه قول الله تعالى : "وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً"([4]).

ومنه قول الحجازي متحسرا لفقد ابن حجر([5]) :

قهرتني الأيام فيه فليتني في مصر مت ولا رأيت القاهرة

الذي يلمح فيه إلى قوله تعالى على لسان مريم : "يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً"([6]).

كذلك تأثر شعراء هذا العصر في مراثيهم **بالقصص القرآني** ، فمن ذلك مثلا قول ابن الجزري في رثائه للفقيه إسماعيل اليماني([7]) :

لو يفدى بالروح كان قليلا ليس بدعا فداء اسماعيلا

وذلك تلميح لقصة سيدنا إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام عندما أراد ذبح ابنه إسماعيل فأنزل الله عز وجل ذبح عظيم لفدائه ، وقد وردت تلك القصة في قوله تعالى على لسان إبراهيم : "قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ"([8]) ، إلى قوله تعالى : "وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ"([9]) .

تأثر أيضا شعراء هذا العصر في مراثيهم **بالسنة النبوية** ، فاقتبسوا من قول النبي صلى الله عليه وسلم متمثلين سنته في حياتهم العملية وفي أقوالهم ، ومن ذلك قول الحجازي في رثائه للفقيه إبراهيم بن شمس الدين وقد خاطبه قائلاً([10]) :

([1]) سورة البقرة ، آية 156 .

([2]) سورة آل عمران ، آية 173 .

([3]) ديوان ابن حجر 224 .

([4]) سورة النساء ، آية 6 ، وسورة الأحزاب ، آية 39 .

([5]) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 215 .

([6]) سورة مريم ، آية 23 .

([7]) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 280/2 .

([8]) سورة الصافات ، آية 102

([9]) سورة الصافات ، آية 107

([10]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 161/1.

من رحمة الله فلا تيأسن إن كنت في الناس ذا مرحمه
فمن يكن في الناس ذا رحمة حق على الرحمن أن يرحمه

فواضح تأثره بقول النبي صلى الله عليه وسلم : "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"([1]).

هذا ويتضح إكثار الشعراء في مراثيهم من تدبر الموت ، وأنه نهاية كل كائن حيّ مبينين بذلك حقيقة الدنيا التي هي دار ممر ، وغلو الآخرة التي فيها المقام والمستقر ، وشواهد ذلك عديدة ، أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، ومنها نذكر أيضاً قول الشهاب الحجازي في رثائه لابن حجر([2]) :

كل البرية للمنية صائرة وقفوا لها شيئا فشيئا سائرة

كذلك قول الشهاب المنصوري في رثائه لسعد الدين الديري : ([3])

دع الأيام تعجب والليالي فظل نعيمهن إلى زوال
قصارى عيشهن إلى فناء وغاية أهلهن إلى انتقال

وذلك إن دلّ فإنما يدل على تمثل شعراء هذا العصر لمعاني الشريعة الإسلامية السمحة في أفعالهم وأقوالهم ، بل في شتى مناحي الحياة ، فأصبحوا يُذكِّرون بها مَن غفل عنها في قصائدهم الرثائية وفي كل فرصة سنحت لهم .

كذلك بدا جليا إكثار الشعراء من الدعاء في قصائدهم ، سواء أكان هذا الدعاء موجها للنفس ترفقا بحالها على من فقدت ، أو كان للميت ترفقا بحاله ، فمن أمثلة ذلك دعاء ابن الشحنة في رثائه لابن الخطيب([4]) :

يا ابن الخطيب سقى ثراك بوابل من رحمة لا تنقضي سحاء
وأثاب فيك المسلمين مصابهم فاليوم حقا ماتت الآباء

ومن ذلك أيضا دعاء المنصوري في رثائه لسعد الدين الديري ، إذ يقول([5]) :

سقاه الله عينا سلسبيلا وأسبغ ما عليه من الظلال
وبوأه من الفردوس مثوى ورقاه إلى الغرف العوالي

([1]) سنن الترمذي ، تحقيق : وإبراهيم عطوة عوض ، الطبعة: الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر 1975م ، 323/4 .

([2]) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 215-216 .

([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 401/2 .

([4]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 223/5 .

([5]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 402/2 .

كذلك دعاء الخطيب للقاضي لسان الدين ، إذ يقول([1]) :

فنسأل رب العرش جل جلاله يعامله باللطف مع عظم رحمة
ويدخله جنات عدن تزخرفت بحور عين مع رياض بهيجة
عليه من الله المهيمن رحمة على مدى الأيام في كل لمحة

ومنه أيضا دعاء إبراهيم الحلبي في رثائه لابن الشحنة ، إذ يناجي ربه قائلا([2]) :

وارحم فتى بجوار عفوك نازلا يرجو رضاك كذا جزيل ثواب
واغفر خطاياه وصبر أهله بمحمد والآل والأصحاب

ولم تقتصر مرثيات الشعراء على مدح الموتى ، وذكر محاسنهم ، والبكاء عليهم ، والدعاء لهم والترحم عليهم فقط ، بل من الشعراء من تجاوز ذلك ليصف لنا تنعمهم وتلذذهم في الجنان ، وملاقاتهم الحور الحسان ، واكتسائهم الحلل والحرير ، ومن شواهد ذلك نكتفي بقول الزركشي في رثاء الملك الظاهر برقوق([3]):

قضا في الإسلام نحبا وقد مضى لعيش رغد ناضر
في جنة الفردوس دار البقا دار النسيم الدائم الوافر
ليكتسي من سندس أخضر وأثواب خلد ليس بالقاصر
ويلبس القيجان من عسجد مكلل بالجوهر الفاخر
وينكح الحور الحسان التي قد كونتها قدرة القادر
ويجتلى كاسات خمر حلت ما صبها والله من عاصر
ويجتني فيها ثمارا زهت من كل نوع طيب طاهر

إن هذا الشعر يدخل في باب العزاء ، وعزاء هذا العصر مستمد من الثقافة الدينية التي طبعت أوجه الحياة جميعاً ، وكما رأينا في الأنموذج السابق فإن الشاعر يشهد بتقوى الملك الظاهر برقوق ، ويصفه بصفات الصلاح ، الأمر الذي يجعله أهلاً لدخول الجنة والتمتع بنعيمها المُقيم .

([1]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 124/1 .
([2]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 737/1 .
([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 534/1 .

الصورة الشعرية :

وهي اللوحة الفنية التي يبدع رسامها في إخراجها للجمهور أو للقارئ بأبهى حلة ، فينقل عبرها إحساسه وشعوره إلى ذهن القارئ ، ليؤثر في فكره فيتسلل ذاك الشعور إلى قلب القارئ ليصيب لب وجدانه ويؤثر في الوتر الحساس لديه فيستقر في أعماق نفسه ...

يقول أندريه بروتون : "إن الصورة إبداع خالص للذهن ، ولا يمكن أن تنتج عن مجرد المقارنة أو التشبيه ، إنها نتاج التقريب بين واقعتين متباعدتين ، قليلا أو كثيرا ، وبقدر ما تكون علاقات الواقعتين المقربتين بعيدة وصادقة بقدر ما تكون الصورة قوية وقادرة على التأثير الانفعالي ومحققة للشعر "([1]) .

ومن هذا المفهوم أظن أن شعراء الرثاء في هذا العصر قد وفقوا في إنتاج صور فنية مستمدة من ثقافتهم الواسعة – وخاصة الدينية – ، ومن بيئتهم ، تماماً مثلما وفقوا في توظيف هذه الصور لخدمة معاني الرثاء والتعبير عن مشاعرهم ورؤاهم . لقد أبدعوا في رسم صورهم وأحسنوا تلوينها ، ليقربوا الرؤية للقارئ فيجد نفسه قد عايشها واستقر فيها وتذوق معانيها ، فتلامس إحساسه فيبادلها شعوره ووجدانه ، وكانت مفردات الطبيعة وعناصرها مصدراً من مصادر صورهم ، فمثلاً شبهوا الميت بالغيث في جوده وعطائه ، وبالأسد في صلابته وقوته ، من ذلك ما جاء في قول الزركشي في رثاء الملك الظاهر([2]) :

قد كان مثل الغيث يوم العطا وفي الوغا كالأسد الضائر

ومن الشعراء من جَعل الميت شمساً ترسل نور معرفتها وعلمها للناس ، ولأن الشمس تشرق وتغيب فإن موته محتومٌ ، فكما تغيب الشمس يغيب الإنسان وينطفئ نوره ، من ذلك ما جاء في قول الشرف يحيى بن العطار في مرثيته التي خاطب فيها شمس الدين محمد بن علي قائلا([3]) :

طلعت على البرية شمس علم فلا عجب مصيرك للأفول

([1]) الولي محمد : الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – لبنان م1990 ، ص16 .

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور ، 534/1 .

([3]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 213/8 .

ومنه ما جاء في قول جلال الدين بن النصيبي في رثاء ابن الشماع ، إذ يقول([1]) :

أخفاك يا شمس العلوم كسوف من بعد فقدك ناظري مكفوف

فإذا كان الشاعر ابن العطار قد ساوى بين غياب الشمس وموت صديقه ، لأن الغياب هو القاسم المشترك في الحالتين فإن النصيبي أخذ حالة الكسوف التي تصاب بها الشمس أحياناً ليصور غياب صديقه ابن الشماع ، ويقرن خفوت الرؤية في حالة الكسوف بانعدام رؤية صديقه الذي أخفاه الموت ، ولأنه لا يرى صديقه لذلك فإن قوله "ناظري مكفوف" مبرر .

وفي السياق نفسه يشبه العسقلاني شقيقته بالشمس التي غابت عن الأنظار ، إذ يقول([2]):

وشمس توارت بالحجاب من الثرى وما الشمس تأوي للتراب من العُرْفِ

وقد عمد العسقلاني إلى المفارقة ، فالشمس على الحقيقة تغيب في لجج السحاب في أفق السماء ، وأخته الميتة غابت في التراب ، وجاءت المفارقة في هذه الصورة في جعل الشمس تتوارى في التراب ، وهذا أمر غير مألوف ، الأمر الذي أكسب الصورة جدة وجمالاً ، كما تماهت صورة أخته مع صورة الشمس في الإشراق والجمال .

ومن الشعراء من شبه المرثو بالجوهرة في قيمتها وغلو منزلتها ، وذلك كما فعل الشهاب المنصوري في رثائه للقاضي سعد الدين الديري ، حيث شبهه بالجوهرة النفيسة وجعل الدموع لآلئ منزلقة من عينيه ، إذ يقول([3]) :

فوا عجبا لجوهرة عليها بكيت من المدامع باللآلي

ومنه ما جاء في قول ابن حجر في رثائه لشقيقته وقد شبهها بالجوهرة ، ولأن ابن حجر يؤثر الجدة والابتكار جعل جوهرته يتيمة ، ولأنها يتيمة متفردة لا مثيل لها في الأحياء أعيدت إلى مثيلاتها من الأصداف ذات الشذا الطيب([4]) :

وجوهرة ردت وكانت يتيمة إلى صدف من تربها طيب العرف

([1]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 85/2 .

([2]) ديوان ابن حجر 223 .

([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 401/3-402 .

([4]) ديوان ابن حجر 224 .

كذلك يعمد العسقلاني إلى المغايرة حينما يجعل شقيقته غصناً انتزع من أصله ، لأنه لم يجن أزهار الغصن ، يقول([1]) :

بكيت الغصن الذي اجتث أصله ولم أجن من أزهاره ثمر القطف

وأظن أن العسقلاني أراد الإشارة إلى موت أخته صغيرة لأن الغصن يتسم بالنضارة ، يؤكد ذلك المغايرة التي اشتملت عليها الصورة ، فالغصن تجنى منه الأزهار ، أما الغصن الذي يبكيه فيجزم أنه لم يجن من أزهاره .

ويستثمر الشاعر المنصوري دلالات النضارة وطيب الشذا التي يتسم بها الغصن ، ويدعو للميت بالرعاية ، لأن شمائله تذكره بنسيم الشمال الذي يمتاز بطيب رائحته ، ذلك ما نراه في رثائه للديري ، إذ يقول([2]) :

رعاه الله غصنا أذكرتني شمائله نسيمات الشمال

لم يتوقف تصوير شعراء هذا العصر لمرثييهم عند هذا القدر من الإبداع والتجديد بل حاولوا الوصول إلى أبعد من ذلك ، فشبهوهم بالبدر ، واستعاروا لهم صفات حسنه وجماله ، وشواهد ذلك عديدة منها ما جاء في رثاء ابن إياس للقاضي بدر الدين بن مزهر ، إذ يستثمر التشابه في الاسم ليماهي بينه وبين البدر ، إلا أن البدر إذا خُسف يغيب في لجج السحاب ، بينما غاب القاضي بدر الدين في التراب ، حيث يقول([3]) :

خسف البدر المفدا وبسحب الترب غابا

كذلك يشبه ابن أبي حجلة صديقه المتوفى أكمل الدين محمد بالبدر مهابة وإشراقاً ، في قوله([4]) :

شيخ عليه من المهابة رونق كالبدر لكن وجهه متهلل

أما الشاعر عبد الباسط الحنفي فيقرن بين موت صاحبه بدر الدين بن غرس وبين سواد الليل ، لأن صاحبه كان البدر الذي يضيء الليالي ، ويقرر أنه سيصاب بحالة من الدهشة إن أضاءت الليالي بعد غياب ابن غرس ، يقول([5]) :

([1]) ديوان ابن حجر 224 .

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 401/2 .

([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 71/4 .

([4]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 352/1 .

([5]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 263/3 .

سأعجب إن ضاءت ليالي عصرنا وكيف يكون الضوء مع عدم البدر

وقد نعت العسقلاني شقيقته التي فارقته بالبدر بعدما شبهها بالشمس التي توارت في التراب ، ليؤكد صفة الجمال والإشراق إضافة إلى تصوير مشاعره تجاهها ، فهي بالرغم من النوى مازالت في عينه وقلبه ، إذ يقول([1]) :

بكيت على البدر المنقل للنوى ولكنه مازال في القلب والطرف

كذلك شبه بعض الشعراء الميت بالبحر في سعة علمه وفكره وكرمه وجوده على الآخرين بما آتاه الله من علم ذاخر ، حيث يصور العسقلاني سراج الدين البلقيني بذلك فيقول([2]):

يا عين جودي لفقد البحر بالمطر واذري الدموع ولا تبقي ولا تذري

كذلك قوله في موضع آخر من القصيدة نفسها :

بحر العلوم الذي ما كدرته دلا من المسايل إن تشكل وإن تدر

ومثله قول ابن أبي حجلة في رثائه للشيخ العلامة أكمل الدين محمد([3]) :

شيخ تبحر في العلوم فمن رأى بحرا يسوغ لورديه المنهل

ومن الشعراء من صور المرثو بالنور والضياء الذي ينير طريق المعرفة للآخرين بنور علمه وحكمته ، فهو كالشمعة التي تنير بلهبها وشعاعها ليرى الآخرين بنورها إلى أن تفنى وتذوب ، فهذا الشهاب المنصوري يصور الشيخ الكافيجي بالنور الذي طالما اهتدت به الناس في عتمة الظلمة ، إذ يقول([4]) :

يا نور أراه اليوم منطفئاً وكانت الناس تمشي منه في سرج

وهذا ابن الشحنة يجعل صديقه محمد النصيبي الضياء ، ويجعل النهار يفقد هذا الضياء بعد موته ، حيث يقول([5]) :

وقد فقد الضياء فصار ليلا نهار العز من فقد الضياء

([1]) ديوان ابن حجر 224 .

([2]) حسن المحاضرة 192 .

([3]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 352/1 .

([4]) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 329 .

([5]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 251/5.

ومنه قول أحد الشعراء في رثاء قاضي القضاة ابن النصيبي([1]) :

فمذ غبت غابت عن أهاليك شمسهم وليلهم قد دام والصبح ما سفر

كذلك شبه شعراء هذا العصر مرثيهم بالشهاب المنير الذي يعتلي الأفق ، من ذلك ما نراه في رثاء سراج الدين لصديقه المرعشي ، إذ يقول([2]) :

إمام كان في الشهبا شهابا منيرا لم يزل يهوي الصوابا

ومثله فعل المنصوري وهو يمتدح صفات صديقه الحجازي ، الذي كان شهاباً يطلع في سماء الفضل ، وكان موته أفولاً وغياباً في التراب ، ومع ذلك فإن كتبه ومؤلفاته ستبقي ذكره دائماً ، ولن ينساه أولو الألباب الذين يطالعون تلك الكتب ، حيث يقول([3]) :

يا شهابا طلوعه في سما الفضل ولكن أفوله في التراب
لك فيما ألفت تذكرة مما انتقى دره أولو الألباب

وفي قصيدة أخرى في رثاء الشهب الستة ، أولئك الأدباء الذين عُرفوا في حياتهم بالشهب ، يستثمر المنصوري ألقابهم – الشهب – ليجعل علمهم نوراً يزين الدنيا ويقشع ظلام الجهل ، مثلما تزين الشهب السماء وتجلو ظلمتها ، يقول([4]) :

زانوا بنظمهم الدنيا ولا عجب إذا تزينت الظلماء بالشهب

كذلك صور الشعراء حزن عناصر الطبيعة على مرثييهم ، فالسحب تبكي وتسكب الدمع حزناً على موت الحجازي ، كما يقول المنصوري([5]) :

هطلت أدمع السحاب عليه وقليل فيه دموع السحاب

أما ابن الشحنة فيقابل حزن السحب وبكائها لموت محمد النصيبي بضحك الرياض وابتهاجها بدموع السحب ، يقول([6]) :

لقد ضحكت رياض الأرض لما بكت من فوقها سحب السماء

([1]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 104/1.
([2]) در الحبب في تاريخ أعيان حلب 178/1 .
([3]) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة 574/1 .
([4]) بدائع الزهور 58/3
([5]) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة574/1 .
([6]) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 251/5 .

ومنه قول المنصوري في رثاء ابن حجر([1]) :

قد بكت السحب على قاضي القضاة بالمطر

ويجسم الشاعر المنصوري العيش ويصوره إنساناً حزيناً مقطب الوجه على فقد الشهب الستة ، ذلك ما نراه في رثائه للشهب الستة([2]) :

تقطب العيش وجها بعد رحلة من تجانبوا بالمعاني مركز القطب

وإلى جانب الصور السابقة التي رأيناها هنالك الكثير من الصور التي ابتدعها شعراء هذا العصر لامتداح صفات مرثييهم ، فمنهم من شبه الميت بالدينار الذي يفقده الإنسان إذا صرفه ، وذلك كما يقول ابن حجر في رثاء شقيقته([3]):

بكيت على دينار خد ملكته فعاجلني فيه التفرق بالصرف

ومنهم من جعل المرثي مفتاحاً للمعرفة لا تستعصي عليه مشكلة ، وذلك كما جاء في رثاء ابن أبي حجلة للعلامة أكمل الدين محمد ، الذي لم يستعص عليه باب من أبواب المعرفة ، إذ يقول([4]) :

شيخ بحسن بيانه وشروحه ما بات بالمفتاح باب مقفل

ومنهم مَن استثمر بعض الصفات التي يشتمل عليها اسم مرثيه ، ومن ذلك ما جاء في رثاء أحد الشعراء لعلاء الدين بن عصفور ، حيث يستثمر الشاعر صفة الطيران في العصفور ويجعل موت علاء الدين طيراناً للخلد ، يقول([5]) :

قد نسخ الكتاب من بعده عصفور لما طار للخلد

ومن بديع الصور ما نراه في بكاء آلات الغناء ونواحها وانتحابها على موت صاحبها ، وذلك في رثاء ابن إياس لصديقه المغني المنشد نور الدين بن رحاب ، حيث يشبه زعاق الدف والماصول بأصوات النواح في المآتم ، يقول([6]) :

([1]) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 215 .

([2]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 59/3 .

([3]) ديوان ابن حجر 223 .

([4]) بدائع الزهور 352/1 .

([5]) ابن حجر العسقلاني : انباء الغمر بأبناء العمر 431/2 .

([6]) بدائع الزهور في وقائع الدهور 435/3 .

وناحت بعده الآلات حزنا وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأبدى الدف والماصول زعقا كمن جاء المآتم في المصاب

ومثله قول الشهاب المنصوري في رثاء صديقه المغني ناصر الدين محمد المازوني([1]) :

يا نزهة السمع سكنت الثرى فللملاهي أيما لهفي
كم لطمة من قدم أو يد في خدي الدكة والدف

وكما صور الشهاب المنصوري آلات الغناء وهي حزينة تنوح وتلطم الخدود من شدة المصاب ، كذلك صور الشعراء كآبة العلوم التي اشتهر بها الميت وشدة حزنها ، فالنحو أضحى مشدوهاً يتجادل مع الصرف ، وأصبح علم البديع معطلاً ، وذرفت أوراق علم البيان دماً على ما فات ... وقد برز ذلك في مراثي القضاة والفقهاء ، ومن ذلك ما جاء في رثاء الشهاب المنصوري لقاضي القضاة سعد الدين الديري ، إذ يقول([2]) :

بكاك العلم حتى النحو أضحى مع التصريف بعدك في جدال
وقد أضحى البديع بلا بيان وقد سفلت معانيه العوالي
بكت أوراقه بيض المواضي دما ويراعه سمر العوالي

إلى غير ذلك من الصور التي وائم الشعراء فيها بين علم الميت أو صنعته وبين الصور والمعاني التي اشتملت عليها مراثيهم .

([1]) السابق 346/2 .

([2]) السابق401/2 .

الخاتمة

الحمد لله الذي جعل لكل بداية نهاية ، وجعل لكل عمل خاتمة ، فإنما الأعمال بخواتيمها ..

وفي خاتمة بحثي هذا أتمنى من الله العزيز القدير أن أكون قد وفقت في دراستي هذه التي تناولت فيها شعر الرثاء في العصر المملوكي الثاني ، في حقبة زمنية طالما غفل عنها الدارسون ووسمها كثير من الناس بالعقم بل ونعتوها بالتخلف والجهل ، وفي هذه الدراسة قسمت بحثي إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

- تناولت المقدمة أهمية البحث ، وغايته ، ومنهجه .
- وفي التمهيد بسطت الدراسة الحديث عن البيئة العامة للعصر المملوكي ، السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعلمية .
- وتناول الفصل الأول رثاء رجال الدولة ، من سلاطين ووزراء وأمراء وقادة ، وقضاة وفقهاء وعلماء وأدباء ، فبدأته بتوطئة لحقيقة طالما غفل عنها الإنسان وألهته ملذات الدنيا عنها ، ألا وهي الموت ؛ نهاية كل كائن ومخلوق ، كما وعرجت فيها على التعريف بالرثاء لغة واصطلاحا ، ثم في المبحث الأول قمت بدراسة رثاء السلاطين والوزراء والأمراء والقادة ، ودرست في المبحث الثاني رثاء القضاة والفقهاء والعلماء والأدباء ، ومثلت المعاني التي قرضها الشعراء .
- أما الفصل الثاني فتخصص في رثاء الأقارب والأصدقاء ، وقد تناولت فيه أولا رثاء الأبناء ، ثم تبعه رثاء الآباء والأزواج ، ثم تلاه رثاء الإخوة .
- وانقسم الحديث في الفصل الثالث الموسوم بـ "في ميزان النقد" إلى مبحثين ، تناولت في المبحث الأول أهم الظواهر اللغوية والأسلوبية التي ميّزت مرثيات شعراء العصر المملوكي الثاني ، ثم انتقلت في الثاني إلى الصورة الشعرية ومصادرها .
- وذيلت الدراسة بخاتمة لخصت فيها أبرز نتائج البحث التي توصلت إليها ، والتوصيات التي طرحتها ، تلتها قائمة بالمصادر والمراجع ، ثم فهرس الموضوعات ، وأنهيت بحثي بملخص باللغتين : العربية والإنجليزية .

وأخيرا أستعرض أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ، وهي :

- كشف شعراء العصر المملوكي الثاني في مراثيهم عن مدى صدق مشاعرهم المفعمة بالحزن وأحاسيسهم المليئة بالألم تجاه من فقدوا من خلال ما استخدموه من ألفاظ قوية وتعابير صادقة .

- اتسمت مراثي شعراء العصر المملوكي الثاني بالميسم الديني ، حيث بدا ذلك جليا فيما وظفه الشعراء من ألفاظ استقوا معانيها من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، هذا بالإضافة إلى ما ضمنوه أشعارهم من آي الذكر الحكيم ، سواء بالإلماح أو الاستغراق .
- بعض قصائد الرثاء لم يصل منها إلا صدورها ، وأحياناً بيت أو اثنين من متنها ، وذلك بالرغم من إشارة الرواة إلى أن تلك القصائد طويلة أو مفرطة الطول ، الأمر الذي قد يشير إلى عدم اهتمام بعض المؤرخين بالشعر ، خاصة إذا كانت غايته التأريخ أو التراجم .
- امتازت أشعارهم بالوضوح وسهولة المعاني والبعد عن التعقيد والالتواء ، وبرع الشعراء في اختيار الألفاظ المعبرة عن معاني الحزن ، كذلك اتسمت أشعارهم بأصالة الخيال فيها ، ذلك الخيال الذي نبع من بيئاتهم ، ونفى صفة التقليد عن صورهم .
- استقى معظم الشعراء عناصر صورهم الشعرية من بيئاتهم إضافة إلى ثقافتهم الدينية بشكل خاص ، حيث لاحظنا أن بيئاتهم كانت من أهم مصادر الصورة الشعرية .
- أثبتت الدراسة زيف التهم التي ألصقت بأدب العصر المملوكي ، من تقليد وانحطاط وغيرها من التهم ، فهو كما رأينا يمتاز بالأصالة والجدة ...

التوصيات المقترحة :

1- توجيه عناية الدارسين إلى العصر المملوكي ، فهو ما يزال بكراً يحتاج إلى العديد من الدراسات التي توفيه حقه ، وتبرز درره .

2- تحقيق المزيد من مخطوطات ودواوين الشعراء في العصر المملوكي الثاني ، والتي لم تحقق إلى الآن .

3- عمل دراسات توازن بين أدب العصر المملوكي والعصور التي سبقت ، تلك العصور التي وصف أدبها بالقوة والأصالة ، لبيان مكانة أدب العصر المملوكي بين عصور الأدب ، ونفي التهم التي ألصقت به.

وأخيرا أسأل المولى عز وجل أن أكون قد وفقت في توفية شعر الرثاء في هذا العصر حقه ، وإنزاله منزلة تليق بقدره ومكانته من خلال بحثي المتواضع ...

المصادر والمراجع

- ابن أبي الأصبع : تحرير التحبير ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة 1383هـ .
- ابن الحنبلي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب ، تحقيق محمود حمد الفاخوري ، ويحيى زكريا عبارة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1972 .
- ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التراث ، بيروت 1968م.
- ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، طبعة القاهرة 1969م.
- ابن زنبل الرمال ، آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط2 ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998م.
- ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، الطبعة الأولى ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات 2002.
- ابن منظور : لسان العرب ، ط1 ، دار صادر ، بيروت 2000م.
- ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي : سر صناعة الإعراب ، الطبعة الأولي ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان 2000م .
- أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .
- أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة 1971م.
- أحمد الشايب : الأسلوب ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية 1966م.
- أحمد الهاشمي : جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ط 27 ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
- أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، موفق الدين ، أبو ذر سبط ابن العجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، حلب 1417 هـ.

- أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، الناشر المكتبة العصرية، بيروت .
- أحمد بن علي المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره محمد زيادة ، القاهرة 1940م.
- أحمد بن علي المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1997م .
- أحمد بن علي المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، الطبعة الثانية ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 1987م .
- أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1961م.
- أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986 .
- أسامة حسن : طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، الطبعة الأولى، دار الأمل، القاهرة 2000م .
- الأشرف قانصوه الغوري : مجالس السلطان الغوري ، تحقيق : عبدالوهاب عزام ، ط1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1941م .
- البدر العيني : السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة ، تحقيق إيمان عمر شكري ، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي ، القاهرة 2002م.
- بكري شيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين ، بيروت 1979م .
- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة 1968م .
- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، نظم العقيان في أعيان الأعيان ، المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك 1927م.
- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
- حسن بن عمر حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، الطبعة الأولى ، دار الكتب المصرية 1976.

- الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة 1970م .
- الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الثالثة ، دار الجيل – بيروت .
- ديوان ابن حجر ، تحقيق فردوس نور علي حسين ، دار الفضيلة للنشر .
- زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار الرائد العربي ، 1981م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة ، القاهرة.
- سنن الترمذي ، تحقيق : وإبراهيم عطوة عوض ، الطبعة: الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر 1975م .
- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر 1896م .
- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، تحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد ، ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت – لبنان .
- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، طبعة دار الجيل ، بيروت .
- شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 1998م.
- شوقي عبد القوي عثمان حبيب : التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 2000 .
- عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة 1321هـ .
- عبد الرحمن محمود عبد التواب : قايتباي المحمودي ، الأعلام (20) ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1978م.
- عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهي السكسكي اليمني : طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهي ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، طبعة مكتبة الارشاد – صنعاء .
- عدنان على رضا النحوي : الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام ، الطبعة الأولى ، دار النحوي للنشر والتوزيع 1999م .

- علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني، الشهير بابن معصوم : أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق شاكر هادي شكر ، ط1 ، مطبعة النعمان – النجف الأشرف 1968م.
- عماد بدر الدين أبو غازي : تطور الحياة الزراعية زمن المماليك الجراكسة ، الطبعة الأولى 2000م .
- عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي ، العصر المملوكي ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر بيروت – لبنان 1989م .
- قاسم عبده قاسم : أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة 1978 .
- قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، التاريخ السياسي والاجتماعي ، الطبعة الأولى ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة 1998م.
- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية 1913.
- كمال غنيم : علم الوصول الجميل ، الطبعة الأولى ، أكاديمية الإبداع ، فلسطين 2008م .
- لطفي أحمد نصار : وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- م.س.ديماند : الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة 1982م .
- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة مطابع الشعب بالقاهرة.
- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 1982.
- محمد بن طولون الصالحي الدمشقي : إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط2 ، دار الفكر ، دمشق – سوريا 1984م.
- محمد راغب الطباخ الحلبي : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، صححه وعلق عليه محمد كمال ، الطبعة الثانية ، دار القلم العربي بحلب ، 1989م.
- محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان 1997م .
- محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعرا وناقدا ، طبعة دار قتيبة 1982م .

- محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، الطبعة الثانية ، مكتبة الآداب، القاهرة 1962م.
- محمود شاكر : موسوعة التاريخ الإسلامي، الطبعة الخامسة – المكتب الإسلامي بيروت 2000م.
- محمود محمد الحويري : مصر في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، عين للدراسات والبحوث 1996م.
- محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1405هـ.
- نبيل خالد أبو علي : الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني ، ط1 ، دار المقداد للطباعة ، غزة 2008م .
- نبيل خالد أبو علي : في نقد الأدب الفلسطيني ، الطبعة الأولى ، دار المقداد للطباعة ، غزة 2001.
- نبيل خالد أبو علي : محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ، مطبعة الوحدة ، رام الله 1993م .
- ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم ابن العراقي : الذيل على العبر في أخبار من عبر ، تحقيق صالح مهدي عباس ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1989م.
- الولي محمد : الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – لبنان 1990 .
- يوسف درويش غوانمة : تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، طبعة دار الحياة للنشر والتوزيع عمان ، الأردن 1982م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	3
شكر وتقدير	4
المقدمة	5
دوافع الدراسة	6
التمهيد : البيئة العامة	8
البيئة السياسية	9
البيئة الاقتصادية	17
البيئة الاجتماعية	23
البيئة الثقافية والفكرية	28
الفصل الأول : رثاء رجال الدولة	33
المبحث الأول : رثاء السلاطين والوزراء والأمراء والقادة	36
المبحث الثاني : رثاء القضاة والفقهاء والعلماء والأدباء	44
الفصل الثاني : رثاء الأقارب والأصدقاء	68
المبحث الأول : رثاء الأقارب	69
المبحث الثاني : رثاء الأصدقاء	76
الفصل الثالث : في ميزان النقد	87
– الظواهر اللغوية والأسلوبية :	88
* التكرار	89
* الحوار	93
* الاستفهام	94
* التوكيد	96
* الشرط	98
* الاستدراك	99
* القصر	101
* التمني	102

* المبالغة	103
* التقديم والتأخير	104
* النداء	105
* الطباق	107
* الأمر	108
* أساليب أخرى	109
* الصورة الشعرية	119
* الخاتمة	126
* المصادر والمراجع	128
* فهرس الموضوعات	133
* ملخص الرسالة باللغة العربية	135
* ملخص الرسالة باللغة الانجليزية	136

الملخص باللغة العربية

تناولت الدراسة شعر الرثاء في العصر المملوكي الثاني ، واشتملت على مقدمة ، وتمهيد درست فيه البيئة العامة للعصر المملوكي الثاني ؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وثلاثة فصول ، تناولت في الفصل الأول رثاء رجال الدولة ، وفي الفصل الثاني رثاء الأقارب ، واهتم الفصل الثالث الموسوم بـ "في ميزان النقد" – بالدراسة النقدية ، وأنهيت البحث بخاتمة أجملت فيها نتائج البحث ، وأهم التوصيات ..

هدف الدراسة :

طمس الصورة السيئة التي طالما تناقلها الغافلين عن ذلك العصر ، وتوعية عامة الناس بالتثبت من صحة ما يردده ببغاوات الجهل بحق ذلك العصر ، فمن جهل عنه فقد إرثا عظيما وكنزا ثمينا ، بما يحويه ذلك العصر من علماء أفذاذ ، وقضاة حكماء ، وأدباء مبدعون اتخذوا من العلم شعارا لهم ومن القلم سلاحا يحاربون به ظلمة الجهل ، فأضحت موسوعاتهم الضخمة التي ألفوها وكتبهم القيمة بما تحويه من لآلئ وجواهر المعرفة إرثا نفيسا لا يوفيه حقه وينزله مكانه وقدره إلا ذوى العلم من المثقفين .

منهج الدراسة :

المنهج المتكامل ، الذي أظنه الأنسب من بين المناهج لإحاطته بجميع مكونات النص دراسة وتحليلا .

نتائج الدراسة :

جاء العصر المملوكي الثاني امتدادا طبيعيا للعصر المملوكي الأول ، فتأثر به ، وأثر فيما بعده ، فبدت أهميته جلية بما تركه شعراء ذالك العصر من إرث قيم بين أيدينا ، من موسوعات ضخمة وكتب قيمة ومخطوطات نفيسة تناول فيها شعراء تلك الحقبة الزمنية دررا من الأشعار في مختلف موضوعاتها ، والتي منها موضوع بحثي " شعر الرثاء " ، والتي بدا فيها جليا الأساليب التي ميزت شعراؤه عن العصور السابقة بما أبدعوا فيها من تجديدات ...

Summary

The study took the elegy the second Mamluk era and included introduction for the general environment of the second Mamluk era , political , economical , social cultural and three chapters . In chapter one I took the elegy of statemen , in the second the elegy of relatives and the third was about the balance of criticism with the critical research . I finished the research with and outlined conclusion the resalts of the research and the most impartant recommendations .

The object of the study :

Efface the bad image which the inadvert ent transfer about that era and take in the public people about the true what ignorance parrots repeat abut that era . who ignores about it lose agreat agreat heritage and a valuable treasure which contaions brilliant scientists , wise creative writers took from the science a motto for them and from the pen aweapon fight the darkness of ignorance. Their huge encyclopedias and their valuable books which contain pearls and Jewets Knowledge became heritage . The intellectual of Knowledge was the only one who gave the heritage its right and its place

Study methodology :

I think that analytical approach is the most appropriate among the approaches because it contains all components of the study and analysis of the text.

Results of the study :

The second Mamluk era emerged as natural extension of the first Mamluk . its importantce clear because the poest of that era leave a valuable heritage between our hands like huge encyclopedias , valuable books and unique scripts which the poets of that era write in that period poems in various which my research from them " elegy " and appear the obvious methods that characterized its poets from earlier eras where they create many renewable things.

Faculty of Arts
Department of Arabic Language
Pst – graduate Programme

Art elegy in the second Mamluk

(State Tower 784 - 923 AH)
Analytical Study

Prepare students
Khaled Nabil Abu Ali

Supervised by
Prof. Dr.
Kamal Ahmad Ghoneim

submitted this letter to complemement the requirements for obtaining
Amasters degree in literatature and crititcism

1433 AH - 2012 AD